عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الاول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٧

دراسات في التراث

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

عالم الفكر

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير : دكتور أحمد البوزيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٢

المحتويات

التراث

التمهيد	بقلم التحرير	٣
تحقيق التراث : تاريخا ومنهجا	الدكتور محمد طه الحاجري	١١
من التراث العربي الاسباني	الدكتور احمد مختار العبادي	٣٩
العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها	الدكتور السيد عبد العزيز سالم	٨٩
علوم العرب القديمة : دراسة منهجية لبعض النماذج	الدكتور سعد زغلول عبد الحميد	١٦٧

★ ★ ★

آفاق المعرفة

ماذا يحدث في علوم الانسان والمجتمع ؟	الدكتور احمد ابو زيد	٢٣٣

★ ★ ★

أدباء وفنانون

طاغور ... الفنان	الاستاذ عبد العزيز محمد الزكي	٢٥٥

★ ★ ★

عرض الكتب

الشيطان في الفلسفة الحديثة	عرض ونقد الدكتور عبد الرحمن بدوي	٢٨٧
الطب النفسي والطب النفسي المضاد	عرض وتحليل الاستاذ ياسر الفهد	٢٩٧

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

السَّيّد عَبد العزيز سَالم *

العَمَارة الاسْلامِيَة
في الاندلس وَتطوّرهَا

لم يحدث الفتح الاسلامي للاندلس تغييراً واضحا فى فن البناء والفنون الصناعية . ذلك لان العرب شملوا رجال الفن من أهل الاندلس برعايتهم ، واسبغوا عليهم فيضا من حمايتهم ، واصطنعوهم لخدمتهم وشجعوهم على متابعة انتاجهم الفني فى ظل العهد الجديد وفى مناخ يسوده **المحبة والتسامح والوئام ، ولهذا واصل** الصناع وارباب الحرف تقاليدهم الفنية بعد أن كيفوها وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد . ولم يلبث هؤلاء الفنانون والصناع أن اندمجوا فى المجتمع الاسلامي ، فاقبلوا على الثقافة العربية وشاركوا بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية ، وتحققت بذلك النقلة فى عصر الخلافة الاموية ، **وامكن صياغة فن اندلسي اسلامي اخذ يتدرج فى** التطور فى العصور التالية ، معتمدا على الذاتية وما كان يغذيه فى ظل عهود المرابطين والموحدين

---

* الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، استاذ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية له العديد من الدراسات والبحوث فى الفن الاسلامي والعمارة الاسلامية فى الاندلس .

من موارد مغربية ، الى ان بلغ أوج تطوره فى عصر سلاطين بني نصر . وعلى هذا النحو يمكننا القول بان حركة الفتح الاسلامي للاندلس لم تتبعها فترة من الركود الفني او الجمود الصناعي: فلم تتوقف عجلة الانتاج عن السير بسبب الفتح الاسلامي ، ولم يتعطل دولاب العمل ، ولم يصب الاقتصاد الاندلسي نتيجة لهذا الفتح بشلل يجمد نشاطه ، وانما ظلت الصناعات راسخة فى البلاد برسوخ الحضارة الاسبانيـة وامتدادها وتواصلهـا ثم تفاعلها مع الحضارة الاسلامية ، وهو امر اكده **ابن خلدون** ، الذي يعلل هذه الحقيقة «بأن العوائد **انما ترسخ بكثرة وطول الامد فتستحكم صبغة** ذلك وترسخ فى الاجيال ، واذا استحكمت الصبغة عسُر نزعها ، **ولهذا نجد فى الامصار التي كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص**، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ، ولو بلغت مبالغها **فى الوفورة والكثـرة** ، **وما ذاك الا لأن احـوال** تلك الامصار قديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها ، وهذه **لم تبلغ الغاية بعد** » . **ثم يتمثل لذلك بالاندلس** فيقول : « وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني والطبخ واصناف الغناء واللهو من الآلات والاوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والاوضاع فى البناء ، وسوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين ، واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائـع التي يدعو اليها الترف وعوائده ؛ فنجدهم أقوم عليها **وابصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم** على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بـين جميع الامصار ، وان كان عمرانها قد تناقص ، والكثير منه لا يساوي عمران غيرها مـن بـلاد العدوة ، وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة **فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط** وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضا لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع . وكملت جميع اصنافهـا على الاستجادة والتنسيـق ، وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران ، ولا تفارقه الى ان ينتقض بالكليـة حال الصبـغ اذا رسـخ فى الثوب » . (١)

ومع ذلك فينبغي ان نقر بأن الانتاج الفني والصناعي فى الاندلس أصابه بعض الاضطراب فى اثناء حركة الفتح وفى أعقابها ، وهو امر طبيعي اذ لا مجال للفنون ان تزدهر فى مناخ تسوده الحرب والقتال ، كما انه يستحيل على ارباب الفن ان يتابعوا انتاجهم **مع دوي قذائف المجانيق وضربات** السيوف وقرقعة السلاح . ومما لا شك فيـه انه صحب الفتح الاسلامي للاندلس موجة مـن

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافى ، الجزء الثالث ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٩٢٦ ـ ٩٢٧ .

الاضطراب شملت البلاد ، وامتدت آثارها الىعصر الولاة ، وهو عصر انتقالي لم تكن الاوضاع الاقتصادية فيه قد استقرت بعد فى الاندلس .(٢)

وبقيام دولة بني أمية فى الاندلس (٣) تبدأمرحلة جديدة استقرت فيها دعائم الاسلام فى الاندلس ، ورسخت قواعد حضارته ، فعادتالحياة الاقتصادية تنشط من جديد ولكن اقوى وأشد مما كانت عليه زمن القوط ، واخذتالحياةالفنية تزدهر وتتألق بعد أن تفذت مجاريها بروافد شرقية أصيلة . (٤)

وفيما يلي عرض عام للفنون الاسلامية فىالاندلس وتطورها حتى نهاية العصر الاسلامي .

• • •

أولا : النظام التخطيطي للمساجد الجامعةوالقصور

(١) أثر المسجد الجامع بقرطبة فى النظامالتخطيطي للمساجد الجامعة فىالمغرب والاندلس.

يجمع مؤرخو الفن الاندلسي على أن جميعالصور المتطورة لعناصر البناء فى مختلف ابنية الاندلس انما تنبثق أصلا من بنيان المسجد الجامع**بقرطبة ، ففيه تكمن المنابت الأولى للفن الاندلسي** التي أخذت فى الظهور فى عصر الخلافة الاموية ،**ثم ترعرعت بعد ذلك فى عصر الطوائف ، وتفتحت** براعمها فى عصر دولتي المرابطين والموحدين ،وأثمرت فى عصر دولة بني الاحمر . وجامع قرطبة **لذلك يمثل المنبع الرئيسي الذي ارتوت منه فنون**الاسلام فى المغرب والاندلس فى عصوره المختلفة ، ولهذا أصبح هذا الجامع المثل الاعلى لمساجد**المغرب والاندلس : فقلد بناة المرابطين تخطيطه**

---

(٢) انصرف ولاة الاندلس بعد الفتح الاسلامي عنالانتاج والتعمير الى مشاغل أخرى فى مقدمتها التوسع فيما وراء البرتات واخماد الفتن الداخلية التي بدأت بالنزاع بين العرب والبربر ، ثم تحولت الى نزاع بين العرب البلديين والعرب الشاميين وانتهت بصراع ضار بين العصبيتين اليمنية والقيسية اجتاح بلاد الاندلس وعصف بها وتسبب فى نوائب طحنتها واطاحت باستقرارها اربعين عاما الى انهيا الله للاندلس ان تشهد عصرا من الاستقرار والطمانينة يبدأ بقيام الدولة الاموية على يدي عبد الرحمن بن معاويةالذي لم يتردد وفقا لما وصفه به ابو جعفر المنصور في ان يقذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده « فاقتحم جزيرةشاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم بعضا بقوة حيلته ،واستعمال قلوب رعيتها بقضية سياسية ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له ابيهم ، فاستولى فيها على اريكته ملكا علىقطيعته ، قاهرا لاعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه » (المقرى ، نفح الطيب ،تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٢١٠) .

(٣) عمل عبد الرحمن بن معاوية بعد ان استقر امرهودانت له الاندلس بالطاعة على احاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وابهة الخلفاء ، فزود حاضرته قرطبة بروائع المنشآتوالعمائر وجدد مغانيها وشيد مبانيها .

(٤) تفتحت الاندلس منذ قيام الدولة الاموية بالاندلسلفيض من التيارات الحضارية بعضها شامي ومصري ،وبعضها حجازي مدني ، وبعضها الأخر عراقي بغدادي . وقد تاثرالمجتمع الاندلسي بهذه التقاليد الشرقية التي غزته وأثرت فيه تاثيرا عميقا .

العام بعد اكتماله بالزيادة العامرية ، تقليدا دقيقافي مسجدهم الجامع بتلمسان ، (٥) واتخذ الموحدون تخطيطه انموذجا لجوامعهم ، (٦)وحوكيت قبابة القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها فى نظام التقبيب فى المساجدوالقصور فى المغرب والاندلس ، بل وفى بعض الكنائس المستعربة فى اسبانيا المسيحية وبعض الكنائس ذات الطراز الرومانسي فى قشتالة ونافارة وارجون ، (٧) واتخذت التشبيكات الناتجة عن تقاطع العقود المنفوخة والمفصصة وما اوصل بينها من النحور المستديرة والناتئة بقواعد القباب الاربع فى قرطبة انموذجا للزخارف المتداخلة فى عقود مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة ، كما اتخذت ايضا انموذجا لزخارف واجهات القاعات المطلة على الافنية فى القصور الاموية بمدينة الزهراء وفى بعض قصور الطوائف والموحدين وبني نصر ، وان كانت هذه الزخارف قد فقدت فى هذه الامثلة الاخيرة خصائصها المعمارية التي كانت تتميز بها فى جامع قرطبة . (٨) وعلى هذا النحو اصبح الفن الخلافي بقرطبة يمثل مدرسة فنية بلغت تاثيراتدروسها الى مجالات بعيدة، فادركت جنوبي فرنسا من جهة ، ووصلت الى بلاد المغرب ومصر من جهة ثانية . (٩)

لقد طبق عرفاء البناء بجامع قرطبة النظام التخطيطي للجامع الاقصى الذي أعاد الوليد بن عبد الملك بناءه فى سنة ٨٧هـ (٧٠٦م) ، وكان يتالف من عشر بلاطات (أروقة) تتجه عقودها عموديا على جدار القبلة . (١٠) ويعتقد الاستاذ ايلى لامبير Elie Lambert انه كان يتالف من ١٥ بلاطا ، البلاط الاوسط أكثر من البلاطات الاخرى اتساعا وربما كان يتجاوزها فى الارتفاع(١١)، ومن المعتقد ان هذا الرقم الذي أورده الاستاذ لامبير هو العدد الفعلي لبلاطات الجامع فى عهد

---

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ،الاسكندرية ١٩٦ ص ٧٥١ .

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور فى الاندلس ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٣ ـ المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٨٥٥ .

(٧) سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ،بيروت ١٩٦٢ ص ٤٠٢ ، مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨ ـ قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، بيروت ١٩٧٢ ج ٢ ص ٤٢ وما يليها ـ مظاهر الاصالة فى بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، بحث القي فى ندوة الحضارة الاسلامية المنعقد في الاسكندرية في أكتوبر ١٩٧٦ .

(٨) Ricard, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord, et en Espagne Paris 1924, p. 132 — Gomez, Moreno, el entrecruzamiento de arcadas de la arquitectu abe, cordoba, 1930 — Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954, p. I .

(٩) السيد عبد العزيز سالم ، اثر الفن الخلافي بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ، مجلة المجلة ، عدد ١٤ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٧٤ ـ قرطبة حاضرة الخلافة ،ج ٢ ص ٣٩ ـ ٦٤ .

(١٠) احمد فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢١٣ .

(١١) Lambert, les mosquees de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, nl-Andalus, Vol. XIV, 1949, p. 277.

الخليفة المهدي العباسي كما وصفه المقدسي .(١٢)وايا ما كان عدد بلاطات الجامع الاقصى فان هذا النظام القائم على بلاطات تتجه اتجاها عموديا علىجدار القبلة اصبح الطابع المميز للمسجد الجامع بقرطبة منذ أن أسسهالامير عبدالرحمن بن معاويةفى سنة ١٦٩ هـ الى أن اتخذ صورته النهائية بزيادة المنصور بن أبي عامر فى سنة ٣٧٧ هـ ،ومنه انتشر فى الاندلس بحيث اصبح الطابع المميز لجميع مساجد الاندلس .

وكما ان تخطيط بيت الصلاة بجامع قرطبةأثر تأثيرا مباشرا على جميع مساجد الاندلس من حيث اتجاه بلاطانه عموديا على جدار القبلة ،نشهد أيضا هذا التأثير واضحا فى زيادة اتساع البلاط الاوسط وزيادة ارتفاعه عن بقية البلاطاتالاخرى ، ويتمثل ذلك فى جامع ابن عدبس باشبيلية (١٣) والمسجد الجامع بمدينة الزهراء(١٤) ، والمسجد الجامع بالمرية (١٥) ، والمسجد الجامع بقصبة اشبيلية (١٦) ، كما نشهده فى غرسجميع صحون المساجد الجامعة بالاندلس بأشجار البرتقال والنارنج على النحو الذي أحدثه الاميرعبد الرحمن بن معاوية عندما أمر عبد الله بن صعصعة بن سلام صاحب الصلاة بالجامع(ت ١٩٢هـ) بغرس صحن جامع قرطبة بالاشجار، **متبعا فى ذلك مذهب الامام الاوزاعي الذي أجاز** ذلك ، وقد تابع حكام الاندلس هذا التقليد فى مساجد الاندلس ، يؤكد ذلك ما ذكره الرحالةوالجغرافيون العرب وغيرهم ، فابن بطوطة يذكر أن بصحن جامع مالقه اشجار النارنج البديعة(١٧) ، كما يذكر **منتزر** الرحالة الالماني الذي زار الاندلس فىسنة ١٤٨٤أن جامع المرية كان مغروساباشجار الليمون والنارنج (١٨) ، وكذلك كان شأن جوامع وادي آش ، وعمر بن عدبس باشبيلية ،وجامع القصبة الكبير باشبيلية ، وجامع البيازين بغرناطة . (١٩)

وتتميز الزيادة الحكمية فى المسجد الجامعبقرطبة دون غيرها من الزيادات التي استوسع بها الجامع باشتمالها على أربع قبات توزعت علىالبلاط من زيادة الحكم وعلى الاسلوب الموازي لجدار القبلة ، ونظمت على النحو التالي : قبة علىمدخل الزيادة وتعرف بالقبة المخرمة الكبرى (٢٠)

---

(١٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ،تحقيق دى غوته ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٥٦ .

(١٣) سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، ص ٤٥ .

(١٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(١٥) سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، ص ٥٦ ـتاريخ مدينة المرية الاسلامية بيروت ، ١٩٦٩ ص ١٤٦ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٥٩ ـ المغرب الكبير ، ج ٢ المغرب الاسلامي ، ص ٨٥٥ .

(١٧) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، طبقة صادر ،بيروت ١٩٦٠ ص ٦٧٠ .

(١٨) Munzer (J.) : Viaje por Espanay Portugal, trad. esp. por Lopez Toro, Madrid, 1951, p. 30.

(١٩) المساجد والقصور بالاندلس ، ص ٢٠

(٢٠) ابن حيان ، نصوص من المقتبس خاصة بزيادةعبد الرحمن الاوسط في جامع قرطبة ، نشرها الاستاذ ليفي بروفنسال ، فى مجلة ارابيكا Arabica ، المجلد الاولالقسم الاول ، ليدن ، ١٩٥٤ ص ٩١ ، ٩٢ .

او القبو الكبير (٢١) او قبة الضوء (٢٢) ، وقبةتعلو الاسطوان الذى يتقدم جوفه المحراب مباشرة وتعرف بالقبة الكبرى (٢٣) او القبة العظمى (٢٤)،بمعنى انهاقيمت بالزيادةالحكمية قبتان احداهما عند مدخل الزيادة ، والأخرى عند نهايتها امامالمحراب ، وفى هذا تقليد لنظام قبتى المحراب والبهو بجامعى القيروان والزيتونة بتونس (٢٥) .ثم اضيفت الى قبة المحراب بجامع قرطبة قبتان جانبيتان تكتنفانها من الشرق والغرب ، واصبحهذا النظام الذى ابتكره بناة الزيادة الحكمية بجامع قرطبة انموذجا احتذته مساجد الغربوالاندلس ، بدليل ان بناة جامع تلمسان قلدوا فى سنة ٥٣٠ هـ تخطيط جامع قرطبة بصورتهالنهائية بعد زيادتى الحكم المستنصر والمنصور ، فبيت الصلاة فيه يشتمل على ثلاثة عشر بلاطاتتجه عموديا على جدار القبلة ، البلاط الاوسط اكثر من بقية البلاطات اتساعا ، ويتميز هذاالبلاط بوجود قبتين : احداهما امام المحراب ، والثانية فوق منتصف البلاط الاوسط فى نفسوضع القبة المخرقة الكبرى بجامع قرطبةبالنسبة لجامع قرطبة كله . ولم يقتصر التقليد على ذلكفحسب ، وانما نجده يمتد الى صفوف العقود التى تفصل بين بيت الصلاة القديم وبين الزيادةالحكمية ، قلدها بناة جامع تلمسان بحيث اصبح هناك صف من العقود القائمة على دعائم ضخمةتقطع البلاطات الطولية عرضا وتقسم بيت الصلاة فى تلمسان الى قسمين ، كل منهما يشتمل على ثلاثة اساكيب (٢٦) تماما كما يحدث بالنسبة لصف العقود القائمة على الدعائم بجامع قرطبة . (٢٧)

كذلك اثر نظام القباب القائمة على البلاطالاوسط واسكوب المحراب فى زيادة الحكم بجامع قرطبة على مساجد الموحدين الجامعة فى المغربمع تعدد للبلاطات الفسيحة يصل الى ثلاث : احدها فى الوسط والبلاطان الآخران متطرفان ،وبدلا من تكدس القباب على بلاط المحراب واسكوبه

---

(٢١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة صادر ج ٢بيروت ١٩٥٠ ص ٢٤١ .

(٢٢) جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ،ترجمة د . لطفي عبد البديع و د . السيد عبد العزيز سالم ص ١٤١ .

(٢٣) الادريسي ،وصف المسجد الجامع بقرطبة منكتاب نزهة المشتاق ، تحقيق الاستاذ ديسيه لامار ، الجزائر ١٩٤٩ ، ص ٢ ـ المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢٤) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس فى تاريخالاندلس ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ، القاهرة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩ .

(٢٥) احمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ،القاهرة ، ١٩٣٦ ص ١٤ .

Lambert, Précisions nouvelles sur l'oeuvre de al-Hakam, II, dans A.I.E.O.U.A., 1936, pp. 70-80 Lombert les coupoles des grandes mosquees de Tunisie et de l'Espagne, au IXe., et Xe siècles, Hesperis t. XXII, fasc. 2, 1936 — A. Fikry, la mosquée Az-Zaytouna a Tunis, da Egyptian society of historical studies, Vol., II, Cairo 1952, pp. 27-64.

(٢٦)

Marçais, l'architecture musulmane d'occident, p. 195.

ـ السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ص ٧٥٠ .

(٢٧)

Lambert, les mosquees de type andalou, p. 285

اصبحت القباب تتوزع على مدخل البلاط الأوسط ونهايته أمام المحراب ، ثم على كل من البلاطين المتطرفين عند نهايتهما من جهة اسكوب المحراب، وقد طبق هذا النظام فى جامع تينمال وجامع رباط تارى . ومع ذلك فهدان المسجدان يجمعان بين التقاليد القرطبية والتقاليد المغربية ، ولكن التأثير القرطبى المباشر يبدو واضحا فى تخطيط جامع الموحدين بأشبيلية ، فبيت الصلاة فيه انعكاس واضح لجامع قرطبة بعد زيادة المنصور بن ابى عامر (٢٨) ، كما انه اقتبس من جامع قرطبة ايضا عظمة صحنه بعقوده السبعة فى اروقة مجنباته التى تحدد عظم اتساعه بدلا من أربعة عقود فى جامع الكتيبة بمراكش وجامع تينمال ، كما اقتبس من قرطبة أيضا الميل الى الثراء الزخرفى فى بواطن العقود على النحو الذى نشاهده فى عقد المدخل الشمالى الى الصحن ، واستخدام الركائز الضخمة دعما لجدران الجامع الخارجية لدفع الضغط الناتىء من الأقواس . (٢٩)

(٢) النظام التخطيطى للقصور الأندلسية وتطوره:

ا ـ **القصور الأموية :** لم تزودنا المصادر العربية بمعلومات كافية عما كان عليه القصر الخلافى بقرطبة ، ومن المعروف ان هذا القصر بناء رومانى قديم توارثه الملوك حتى الفتح العربى، ثم اتخذه الولاة منذ ولاية ايوب بن حبيب اللخمى مقرا لهم ، الى ان قامت الدولة الأموية ، فوسع فيه أمراء بنى أمية ، وشيدوا به قاعات ومجالس وقصور ، تأنقوا فى تزيينها حتى بلغت الغاية فى الفخامة والعظمة ، ومنها المجلس الكامل ، والمجلس الزاهر ، وقصر المجدد ، والحائر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرسيق ، والسرور ، **والتاج ، والبديع ، والبستان (٣٠) ، وساقوا اليها**

---

(٢٨) سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ٨٥٦ .

(٢٩) سالم ، المساجد والقصور فى الاندلس ، ص٦٢ ـ دائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ص ١١٤ .

(٣٠) نلاحظ ان بعض أسماء هذه القصور تماثل اسماء قصور اموية وأخرى عباسية فى المشرق ، فقصر الحائر يذكرنا بقصري الحيرة الشرقي والغربي ، وقصر التاج يذكرنا بسميه العباسي الذي اقامه الخليفة المعتضد العباسي في بغداد ، وقصر المعشوق والمختار والبديع تذكرنا باسماء مماثلة لقصور عباسية في سامراء . ومن الجدير بالذكر أن بني عباد اقاموا قصورا فى اشبيلية سموها ببعض هذه الاسماء كالقصر المبارك والقصر الزاهر والبديع او باسماء قصور معاصرة مثل قصر السرور الذي يذكرنا بقصر السرور بسرقسطة ، ولعل المعتمد بن عباد اراد بذلك ان يتظاهر بما كان يتظاهر به خلفاء بني امية فى قرطبة من سلطان ومجد عن طريق البنيان ولهذا قلد بني امية حتى فى اسماء قصورهم ونافسهم في ميلهم للبنيان . ويذكر الفتح بن خاقان ان ((قرطبة كانت منتهى امله ، وكان روم امرها اشهى عمله)) (الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ص ١٠) .

ونستدل على تقليد المعتمد فى بنائه لقصور المبارك والزاهر والبديع لبني أمية بابيات قالها الحصري المكفوف الشاعر يمدح فيها المعتمد فيقول : ـ

ابنـي عبـاد مـا حسـنت ... الا بكـم الـدنيـا فقـد
دانـت بغـداد لقـرطبـة ... وخـلائفهـا للمعتمـد
سـمعوا برشـاد فتـى لخم ... فنفـوا هـارون عـن الرشـد
يـافـرع المنـذر والنعمـا ... ن بلغـت النجـم فطـل وزد
طفئـت انـوار اميـة فى ... قصـر الخلفـاء فقلـت قـد
نافسـت بقصـرهـم ارمـا ... فكـان اميـة لـم تشـد

(ابن بسام الذخيرة فى محاسن اهل الزيرة ، قسم رابع مجلد اول ، ص ٢٠٤) .

المياه من جبال قرطبة وأجروها فى ساحاته فى برك وأحواض من الرخام ، وأطلقوها من تماثيل معدنية تمج المياه من أفواهها . (٣١) وكان لهذا القصر الخلافى عليات ومناظر تطل على النهر والربض القبلى حيث كان يجلس فيها الأمراء . (٣٢)

ولكن لم يبق للأسف من القصر الخلافى فى الوقت الحاضر الا الجدار المقابل لجدار الجامع وقسم من جداره الشمالى (٣٣) ، أما القاعات فقد طمست معالمها بعد أن تعرض القصر لأضرار جسيمة ، بسبب اشتعال النيران فيه عدة مرات ، الى أن حوله الأسقف دون سانشودى روخاس الى قصر من الطراز القوطى ، ثم احرق من جديد فى سنة ١٤٥٦ ، وهدمت واجهته المطلة على الوادى كما تهدم الساباط الذى كان يصل بين القصر والجامع فى سنة ١٧٤٥ .

كذلك لم يتبق من قصر الرصافة الذى شيده عبد الرحمن بن معاوية فى أول سنى امارته (**أى سنة ١٣٨ هـ) على بعد خمسة كيلو مترات** الى الشمال الغربى من قرطبة (٣٤) سوى البقعة ومجرد الاسم ، كما لم يصل الينا من قصر الدمشق الا ما قيل فيه من أوصاف الشعراء والكتاب . (٣٥)

الا أن ما تبقى لحسن الحظ من أطلال القصور التى أسسها كل من الخليفة عبد الرحمن الناصر (فيما بين ٣٢٥ (٩٣٧ م) و ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) والخليفة الحكم المستنصر (فيما بين ٣٥٠ هـ (٩٦١) ، و ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) مثل قصر الخلافة وقصر الزهراء وقصر المؤنس ، التى روى المؤرخون العرب قصة بنائها فيما يشبه الاساطير وبالغوا فى وصف روائعها وما احتوته من مظاهر الابهة والثراء (٣٦) ، يكفى فى حد ذاته لاستنتاج ما كان عليه نظام القصر التخطيطى فى عصر الخلافة الأموية . ويمكننا أن نستنبط مما أسفر عنه البحث الأثرى الذى تتابعت عملياته فى أرضها على أيدى كبار الأثريين الاسبان أمثال Pedro de Madrazo ثم R. Castejon, Velasquez و Bosco و Felix Hernandez على أن قصور الزهراء نوعان :

الاول : الدار التى تقوم حول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حوله جميع الغرف .

---

(٣١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢

(٣٢) سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ص ١٨٩ ـ ١٩١ .

(٣٣)

Castejon, Cordoba califal, p. 74

(٣٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٣٨ ـ السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ص ٥٠ .

(٣٥) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ج ٢ ص ١٧ ، ١٩٠

(٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ ـ المقرى ، ج ٢ ص ٦٥ ، ٦٨ ، ١٠٣ ـ ١٠٥ وراجع الدراسة التاريخية في : قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ١ ٢٢٩ ـ ٢٥٧ .

والثانى : القصر الذى يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال فى بيوت الصلاة بمساجد الأندلس . (٣٧)

ومن المعروف أن هذا الطراز من القصور استلهم فكرته ونظامه التخطيطى من الطراز الحيرى فى البناء الممثل فى قصر الخورنق والسدير من قصور الحيرة فى عصر المناذرة ، فقد ظلت قصور الحيرة مستودعا زاخرا بالتقاليد الفنية الفارسية، كما كانت قصور الفساسنة فى الجولان وبادية الأردن والمتأثرة الى حد كبير بفن العمارة الساسانية مصدرا هاما للنظام التخطيطى فى القصور الاسلامية فى مختلف القصور ، ونستدل على ذلك من الحقيقة بأن بعض قصور الفساسنة فى بادية الاردن ومن بينها قصر المشتى وقصر القسطل كانت مصدر الهام لبناء القصور الأموية فى البادية كقصر هشام المعروف بخربة المفجر بالقرب من أريحا ، وقصير عمرة ، وقصر الطوبة ، وكانت طرزها الزخرفية والمعمارية شبيهة بآثار الأمويين الى حد اختلط معه الامر على علماء الآثار ، فنسبوها الى العصر الاموى . (٣٨) كذلك اقتبس المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ) فى بناء قصوره النظام المعمارى المعروف بالحيرى والكمين والأروقة الذى يتمثل فى قصرى **الخورنق والسدير** ، وذلك « **أن بعض سمّاره حدثه فى** بعض الليالى أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانا فى دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئتها (٣٩) ، للهجه بها وميله نحوها ، لئلا يغيب عن ذكرها فى سائر أحواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، **والكمّان ميمنة وميسرة** ، **ويكون فى البيتين اللذين** هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفى اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج اليه من الشراب، والرواق قد عم فضاؤه الصدر، **والكمّين** ، **والابواب الثلاثة على الرواق** ، **فسمى** هذا البنيان الى هذا الوقت (اى زمن المسعودى) **بالحيرى** ، **والكمّين اضافة الحيرة** ، **واتبع الناس** المتوكل فى ذلك ائتماما بفعله ، واشتهر الى الغاية » . (٤٠) والواقع أ **ن قصر السدير** الذى نعتقد انه سمى كذلك لوجود ثلاثة قباب تعلو صدره مثل هام للنظام الذى سماه المسعودى بالحيرى والكمين والاروقة ، أو ما سماه ياقوت بطراز الحارى بكمين (٤١) . ولم يكن المتوكل أول من طبق هذا النظام فى بناء قصره بلكواراه أو فى

---

(٣٧) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 273-291

(٣٨) Creswell, Early Muslim architecture : Umayyads, Early Abbassids and Tulundis, Vol. I, Oxford, 1938, p. 300.

ارنست كونل ، الفن الاسلامي ، ترجمة احمد موسى ، ص ١١ .

(٣٩) اي على شكل توزيع الكتائب عند القتال ، فالقلب يتوسط المقدمة وتكتنفه الميمنة والميسرة او الساقتان.

(٤٠) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، ج ٤ ص ٨٧ .

(٤١) ياقوت ، معجم البلدان ، يادة سدير ، مجلد ٣ طبعة بيروت ص ٢٠١

قصور الجعفرى ، فقد ثبت أنه عرف فى قصرالمنصور ببغداد وفى قصر الجوسق الخاقانىالذى بناه المعتصم فى سامرا ، (٤٢) وفى بعض المنشآتالعباسية فى الكوفة والرافقة .

والظاهر أن هذه التقاليد العراقية الفارسية**انتقلت الى الاندلس ـ ذلك البلد النائي فى أقصى** الاطراف الغربية للعالم الاسلامى ـ فى جملة ماانتقل اليها من تقاليد مشرقية عراقية ابتداء من امارة عبد الرحمن الاوسط (٤٣) حتى سقوطالخلافة الاموية بقرطبة ، فالنظام الواضح فى قصور الزهراء يتبع الاسلوب الحيرى الذىتحدثنا عنه ، فمجلس الاستقبال بقصر الخلافة فى مدينة الزهراء ـ وقد اكتشف فى عام ١٩٤٤ ـ ينقسم الى ثلاث بلاطات عمودية على الجدار الشمالى ، ويتكون البلاط الاوسط من صفين**من العقود المتجاورة عدد كل صف منها ستة** عقود تقوم على سبعة أعمدة ، ويحف بهذهالبلاطات من كل من الجانبين الشرقى والغربى بلاط جانبى متطرف ، يصله بالمجلس المذكورباب معقود على منكبين ، ويرتكز كل منهما على عضادة من الرخام الأبيض نقشت عليها زخارفنباتية بلغت الغاية فى الروعة والجمال . (٤٤) كذلك اسفرت الحفريات الأثرية التى أجراهاالعالم الأثرى Velasquez Bosco سنة ١٩١٩ عن كشف قصر من قصور الحكم المستنصر ،يبرز فيه برطل او سقيفة تطل على بهو فسيح مربع الشكل (عرضها ٦٫٩٠ مترا) بخمسةعقود،وتنفتح السقيفة المذكورة على مجلس يبلغ طوله ٣٨٫٨٨ مترا وعرضه ٢٠ مترا عن طريق خمسةابواب أعمدتهاملتصقة بعضادات الابواب ،وينقسم المجلس الى خمس بلاطات تتعامد على الجدارالشمالى يبلغ اتساع البلاط الأوسط منها٧٫٤٦ مترا فى حين يبلغ اتساع كل من البلاطات الأربعالاخرى ٦٫٨٢ مترا . (٤٥)

ونظام البرطل الذى يتقدم المجلس (٤٦)سيصبح تقليدا متبعا فى بناء القصور منذ ذلك الحين حتى نهاية العصر الاسلامى ، وسيفتتنبهعرفاء البناء فى الأندلس لما تحققه عقوده من تناسق بازاء القاعة التى يطل عليها سيما اذا كانالبرطل يشرف فى آن واحد على بركة صناعية

---

(٤٢) كمال الدين سامح ، العمارة ، فى صدر الاسلام ،ص ٩٣

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم ، التاثيرات العراقيةفى البناء الحضاري الاندلسي فى عصر الدولة الاموية ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي للتاريخ فى بغداد ، ١٩٧٣ .

(٤٤) Castejon, Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara Campana 1943, Madrid 1944, — Nuevas excavationes en Medina Azahara, el Salon de Abd er-Rahman III, al Ahdalus, 1945, pp. 147-154.
Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, 1951, pp. 82-90.
Torres Balbas, la mezquita de cordoba & madinat al-Zahara, Madrid 1952, p. 149.

(٤٥) Torres Balbas, Arte hispano musulman hasta la caida del califato de Cordoba, p. 459.

(٤٦) ابن حيان ، قطعة من المقتبس ، تحقيق الدكتورعبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٩ .

تتيح الأقواسه وعقوده أن تنعكس صورها على صفحة مياهها ، كما أن البرطل بعقوده المتعددة يؤكد لنا براعة البناء الأندلسى فى التنسيق والانسجام فى توزيع الكتل والفراغات .

ونطالع فى المصادر العربية أن قصر الخلافة، أول قصور الناصر فى مدينة الزهراء ، كان يضم مجلسين رئيسيين : الأول هو المجلس الشرقى المسمى بقصر المؤنس ، وهو بيت المنام الخلافى(٤٧) وكان يزدان بحوض من الرخام الأخضر نصب فى وسطه ، وحفرت عليه نقوش تمثل صورا آدمية مذهبة ، وكان يدور حوله اثنا عشر تمثالا من النحاس مرصعة بالدر النفيس من صناعة قرطبة كانت تمج المياه من أفواهها. (٤٨) والثانى المجلس الغربى ، وكان يسمى بالمجلس البديع ، أو مجلس الذهب ، أو مجلس الأجراء . (٤٩) وكان يتوسطه اليتيمة التى أتحف بها الامبراطور البيزنطى ليو **السادس المعروف بالفيلسوف الخليفة الناصر** ، وهي حوض مذهب كبير أو صهريج كان الناصر يملأه بالزئبق ، وكان « فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار ، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طاربهم مادام الزئبق يتحرك » . (٥٠)

• • •

ب ــ قصور الطوائف : ونلاحظ أن هذا النظام التخطيطى لقاعات القصور الأموية سيتعرض للتطور فى عصر دويلات الطوائف ، وهو العصر الذى ازهر فيه فن البناء ، وبلغ العرفاء والفنانون الغاية فى التفنن فى التعقيد الزخرفى والاسراف الجنونى فى مزج المنظر الطبيعى بالبناء ، واحداث تأثير جمالى يحرك المشاعر ويهز النفس : فدار المزينية كان قصرا ريفيا لبنى عباد يشتمل بالاشجار وتكتنفه الازهار وتحيط به البساتين النضرة .(٥١) ذات الزهور العطرة والألوان الزاهية. ونظام البرطلات التى تتقدم المجالس نشهد نظائرلها فى واجهة بهو الجص من قصر اشبيلية زمن

---

(٤٧) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤٥ ــ المقرى ، ج ٢ ص ١٠٤

(٤٨) عثر فى اطلال الزهراء على تمثال من النحاس يمثل وعلا يبلغ ارتفاعه ٤٠ سم ، وكله ملىء باللفائف النباتية المحفورة ، والتمثال من نوع التماثيل الحيوانية التي تمج المياه من افواهها ، وكان الماء يصل الى فمه عن طريق انبوب يمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد فى أرجله ورقبته (راجع جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ، ص ٤٠٠) .

(٤٩) ابن حيان ، قطعة من المقتبس ، نشر الحجي ، ص ١٣٧ ، ١٨٤ .

(٥٠) المقرى ، ج ٢ ص ٦٨

(٥١) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ ص ٩ ، المقرى ، ج ٦ ص ١٤ .

بنى عباد ، وسيصبح تقليدا متبعا فى قصور الحمراء بغرناطة . ونظام الاحواض الرخامية أو الصهاريج التى تتوسط القاعات والمجالس ستتحول الى بحيرات صناعية فى عصر الطوائف، مثل قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وكانت له بحيرتان قد نصبت على أركانهما تماثيل أسود من النحاس أو البرونز ، ومينة البحيرة الكبرى باشبيلية ، والبركة التى كانت تتوسط بهو الجص ، والتى ربما كانت نفس البركة التى كانت قائمة فى قصر الوحيد أحد المجالس الرئيسية فى القصر المبارك الاشبيلى ، ونصب فى جانب منها تمثال فيل يمج الماء من فيه . (٥٢)

• • •

جـ ـ قصر طليطلة : اقامه المأمون بن ذى النون سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) بطليطلة وأتقنه للغاية ، وانفق عليه أموالا طائلة ، وصنع وسطه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ، ويتصل **بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما** يسكب من الماء خلف الزجاج لا يفتر عن الجرى ، والمأمون جالس فيها لايمسه شىء من الماء وقد أوقدت له فيها الشموع . وكانت لقصر المأمون بحيرتان يصفهما ابن حيان بقوله : « ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الابريز أحكم صياغة تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونا كرشيش القطر أو سحالة اللجين ، وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر كبير الجرم ، غريب الشكل بديع النقش ، قد أبرزت من جنباته صور حيوان واطيار واشجار ، (٥٣) وينحصر منها فى شجرتى فضة عاليتى الأصلين غريبتى الشكل ، محكمتى الصنعة ، قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة، يترقى فيهما الماء من المذبحين، فينصب من أعالى أفنانهما انصباب رذاذ المطر او رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصبى النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط الارتفاع ، **ينساب من أفواهها ، ويبلل اشخاص أطيارها وثمارها بالسنة كالمبارد الصقيلة**، يقيد حسنها الالحاظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة » . (٥٤)

هذا الوصف المعبر الذى ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو علينا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره ، كما يشير الى الدور الذى بدأت تلعبه البحيرات فى تجميل القصر ومجالسه .

---

(٥٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٥ ص ٣٩٥ .

(٥٣) يشبه هذا الحوض ، حوض مدينة الزهراء الذي عثر عليه في اشبيلية ويحمل اسم المنصور كان قد اتخذه في قصر الزهراء (جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ، ص ٢١٤) .

(٥٤) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، المجلد الاول القسم الرابع ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

د ـ منية البحيرة باشبيلية : هى منيةتتوسطها بحيرة صناعية كبيرة (٥٥) تحف بها الاشجار التى تلتحف غصونها بسندسها ،وتحيىالازهار بطيب تنفسها ، وتنعكس ظلالها على صفحات الماء فى الليالى القمرية .

هـ ـ المجلس الوحيد بالقصر المبارك باشبيلية : اسم هذا القصر نطالعه فى أشعار ابن اللبانة فى رثاء المعتمد :

بكى الوحيد بكى الزاهى بقبته والنهر والتاج كل ذلك باد (٥٦)

ونعتقد ان الوحيد من المجالس الرئيسيةبالقصر المبارك الذى كان المعتمد بن عبّاد قد اقامه بالقرب من دار الامارة القديمة ، وانه كانيقوم منفردا فى جانب من مجموعة القصر المبارك. وكان للقصر الوحيد بركة نصب فى جانب منهاتمثال فيل يمج الماء من فيه ، وصفه الشاعر عبد الجليل بن وهبون بقوله :

ويفزع فيه مثل النصل بدع من الافيال لا يشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا تراه قلما يخشى هزالا (٥٧)

وكثيرا ماكان المعتمد بن عباد يجلس علىحافة تلك البركة فى الامسيات ، ويأمر بايقاد الشموع ليمتع نظره برؤية المياه تنساب من الفيلالى البركة وضوء الشموع الباهت يمتد شاحبا شحيحا فيما حوله .

و ـ قصور المرابطين والموحدين : ونصلالى **عصر المرابطين** لنشهد تجديدا واضح المعالم فى تخطيط افنية القصور وابهائها ، فلقد كانتهذه الافنية فى العصور السابقة اما تتوسطها برك تنتصب فى اركانها اسود معدنيه كما هوالحال فى قصر طليطلة ، او احواض للمياهتنبثق فى وسطها نافورة او يحيط بها تماثيل لحيواناتوطيور تنساب المياه من افواهها ، كما هو الحال فى قصر الزهراء ، او ابهاء تتقدمها برطلات قائمةعلى بوائك كما نشهده ايضا فى مدينة الزهراء ، ويتمثل التخطيط الجديد لأبهاء القصور فى عصرالمرابطين فى قصر منتقوط Monteagudo الذى اكتشفت بقاياه فى سهل مرسية ، على بعدنحو اربعة كيلو مترات الى الشمال الشرقى من هذه المدينة . ويتوسط القصر المذكور بهومستطيل الشكل يطل على جانبيه القصرين جوسقان مربعان بارزان ، يمهدان لجوسقى بهوالسباع فى قصر الحمراء بغرناطة ، ويتعامد ممران يؤلفان محورى البناء فيما بينهما على شكلصليب ، وتمتلىء المستطيلات الأربعة الناشئة

---

(٥٥) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٨ ـ المقرى ،ج ٦ ص ١٦

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٢٤ ـ المقرى ، ج ٦ ص ١٠

(٥٧) المقرى ، ج ٥ ص ٣٩٥ ـ
Querreto Lovillo, el Qasr el-Mubarak, en el Boletin de Bellas artes, Sevilla, 1974, p 97.

من هذا التعامد بأشجار البرتقال والليمون .(٥٨)وقد اقتبس هذا النظام نفسه بعد ذلك بقرنين من الزمان في جامع القرويين بفاس ، وفي بعض قصور امراء بني مرين بمراكش . اما في الاندلس فقد تطور هذا النظام فوصل الى قمة تطوره في عصر سلاطين بني الاحمر ملوك غرناطة ، ويتمثل في بهو السباع الذي يرجع تاريخه الى عهد السلطان محمد الخامس ، وهو بهو على شكل مستطيل طوله ٢٨١/٢ مترا وعرضه ١٥٫٧٠ مترا،ويطل على جانبيه القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة ، ويتقاطع محورا البهووقد اتخذا شكل قناتين فيهما المياه ، بحيث يؤلفان شكلا مصلبا ، ويتوسط الصحن عند نقطة التقاطع فوارة تتكون من ثلاثة أجزاء : النافورة والحوض الاعلى ببيلته ثم الحوض الادنى من الفوارة حيث استدار اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها (٥٩) . ويعتقد الاستاذ لامبير أن الشكل العام لصحن السباع بما يحيط به من بوائك في جهاته الاربع يبدو متأثرا بنظام أبهاء الاديرة المسيحية (٦٠) ، وان كنا نعتقد انه متأثر بنظام أبهاء المساجد ، وعلى الاخص نظام أبهاء المدارس القاهرية ذات التخطيط المتعامد . وفي عصر الموحدين ينتشر نظام البرطلات المطلة على البرك والابهاء ، ويتمثل ذلك في برطل يطل على بهو الجص بقصر اشبيلية ، والبرطل المذكوريقوم على بائكة تتكون من سبعة عقود ، العقد الاوسط منها منكسر يزيد في الاتساع وفي الارتفاع عن العقود الستة الاخرى ، ويكتنفه على كل من جانبيه الايمن والايسر ثلاثة عقود صغيرة تمتد منها شبكة من المعينات المفرغة ، اما بنيقتا العقد الاوسط الكبير فتغطيهما شبكة من أشرطة منحنية متشابكة .

كذلك نشهد في عصر الموحدين عودة الى نظام القاعات المطلة على البحيرات ، ويتمثل ذلك في قصر البحيرة الذي امر ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ببنائه خارج باب جهور باشبيلية سنة ٥٦٧ هـ (٦١) (١١٧١م) وقد اختط بحيرة في جنان تنسب لابن مسلمة القرطبي بعد أن عوضه عنها بجنات مماثلة .

د ـ قصور غرناطة : ويتطور النظام التخطيطي في عصر بني الاحمر ، فيختفي نظام الاروقة العمودية على جدار صدر المجلس،وتقتصر القاعة على جدران تتخللها شمسيات توامية معقودة تطل على منظر طبيعي يثير الاحساس بالنشوة البصرية،ويعتمد الفنان في التاثير الجمالي للزخرفة على تطبيق خاصية الهروب من الفراغ الزخرفي ، احدى الخصائص الاساسية للفن الاسلامي ، فيكسو الجدران بزخارف متعددة موزعة من ادنى الجدران الى السقف تجعل من الجدران أبسطة منقوشة ومرقشة ، فالازر تكسوها تربيعات رائعة من الزليجي تعلوها

---

(٥٨) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ،ص ٣٣٤ .

(٥٩) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الاندلس، ص ١٢٢ .

(٦٠) Lambert, La Alhambra de Grenade, dans la revue de l'art, t. LXIII, p. 144.

(٦١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، تحقيق د . عبد الهادي التازي بيروت ١٩٦٤ .

تنميقات جصية من التوريق الذي تمتزج فيه كتابات كوفية أو نسخية تتشابك حروفها وتتعانق رؤوسها وتتضافر أبدانها فيما بينها وتختلط بالفروع الملتفة والاعصان المتموجة .

وتمثل مجموعة قصور الحمراء بقاعاتها المتعددة الميل الى الاسكثار من البرك الصناعية التي تطل عليها برطلات وسقائف قائمة على عقود ممتدة ، توشحت بشبكات جصية من المعينات المفرغة ، وانتظمت على حافي البرك أدواح الريحان ، واكتست أرض القاعات بالمرمر الصافي البياض .

وقد قرنصت أركان الاسقف بالذهب واللازورد ، وعلتها قباب نجمية من المقربصات الدقيقة الملونة أو أسقف خشبية مرقشة بالنجوم المتداخلة قد طعمت فيها الاخشاب بالعاج . ويتمثل هذا النظام فى بهو البركة أو الريحان وفى بهو السباع وفى قصر البرطل وبهو الساقية بقصر جنة العريف . وفى هذه القاعات والقصور والبرطلات تتجلى براعة الفنان الفرناطي فى التوفيق بين الكتلة والفراغ ، ونشهد هذا الاتجاه الجمالي فى رواق البركة ،، الذي يسبق قاعة السفراء ، اذ يطل على بهو الريحان بائكة تتألف من سبعة عقود يتوسطها عقد يزيد فى ارتفاعه واتساعه عن العقود الستة الاخرى التي انتظمت على جانبيه **فى تناسق وايقاع ، يبعدانه عن المظهر الخشن** الذي نشاهده فى بهو الجص بقصر اشبيلية . كذلك يطل على بهو السباع أربع بوائك عقودها نصف دائرية مطولة على عمد رشيقة نحيلة ، **وتعلو هذه العقود شبكات زخرفية من المعينات** الهندسية من أروع ما أخرجته يد الفنان المسلم . وقد نجح الفنان فى تقسيم الكتل والفراغات الداخلية تقسيما توقيعيا صاغه بالبنيان والتنسيق الزخرفي ، كما يصوغ الوشاح موشحته والملحن قطعته الموسيقية ، بحيث يحرك المشاعر ويثير فى النفس نشوة تملى من روعة التقسيم وجمال التوزيع وتعادل النسب . والى جانب ذلك امكن لبنّاء القصر أن يتوصل بعمق الى أسرار الاثر الجمالي فى البناء ، فعرف كيف يجمع المنظر الطبيعي بالعمارة ، كما نجح فى احداث تأثير جمالي **يصحب فن توزيع الخمائل والجنان** بالبرك والسواقي والنوافير بالقاعات والمناظر والبرطلات والشراجب والقمريات ، نجح هذا الفنان المبدع فى مزج ذلك كله ، فجعل قصور الحمراء واحة خضراء تظللها الاشجار المتشابكة الكثيفة الملتفة التي لا تتخللها أشعة الشمس المحرقة من تكاثف الظلال ، واجرى اليها المياه من الجبال المحيطة تنساب فى جداول تحف بها الادواح بين الممرت المؤدية الى القصر ، فترطب نسماتها المنعشة الوجوه المحترقة من حرارة الجو ، ثم أقام بين القاعات أبهاء فسيحة تتوسطها برك وبحيرات مستطيلة الشكل ، طرّز حفافيها بالزهور الملونة **أو أشجار الريحان الخضراء (٦٢) ، وفتح فى هذه** القاعات شمسيات وقمريات تطل على نهر حدرة الذي تندفع مياهه أدنى هذه القاعات فى منظر من أروع المناظر الطبيعية . كما حقق عرفاء البناء بغرناطة لسلاطينها رغبتهم فى التمتع بالهدوء والاتصال الوثيق بالطبيعة الساحرة تستفرقهم

---

(٦٢) المساجد والقصور فى الاندلس ، ص ١١٤ .

بجمالها ، فأقاموا منيات موزعة على الربى والسفوح الممتدة من مرتفع الحمراء ، مزجوا فيها السواقي والنوافير والجداول بالعقود والاقواس، وخلطوا التوريقات الحية بالتوريقات والتواشيح الجصية الملونة التي تغطي بنيقات العقود وتكسو شبكات البوائك ، وكل شيء فيها بسيط في مظهره قوي في تأثيره في النفس ، فزخارف قاعاتها ، وتوزيع منظراتها ونوافذها ، واحاطتها بنطاق طبيعي خالص يهيىء للمرء أن يحس بنشوة جمالية لا نظير لها ، وقد اضفى الفنان على كل ذلك الوانا زهية من خضرة الادواح الملتفة ونضارة الازهار ، كما كسا جدران القاعات بغلائل رقيقة ملونة من الزخارف منها الازر الزليجية التي تتعدد فيها الرسوم الهندسية ، ومنها الشبكات الجصية التي تكسو الاجزاء العليا وتتداخل مع الحنايا المقربصة بزخارفها المذهبة ، وكتاباتها الموشحة بالتوريق والتشجير . لقد بلغ فنانو غرناطة الذروة في تطوير فن العمارة الاسلامية بالاندلس والغاية في السمو به الى اعلى درجة من التأنق الذي يصل بالناظر الى اقصى درجات الانتشاء وتخدير المشاعر ، فسخروا الزخرفة التي افتتنوا بها في التعبير عن فكرة الاتزان في البناء وفي ابراز دوره النفعي الذي يقوم به عن طريق تجزيئهم للمسطحات الكبرى الى تقاسيم حشدوا في كل منها ما يتلاءم وطبيعته ، كما عرفوا كيف يجعلون من البناء الجامد تحفة فنية تقيّد الالحاظ في كل جوانبها ، وتحبس العيون عن الترقي عن جزء منها قبل ان تستكمل متعتها من جماله وروعته .

• • •

ثانيا ـ الدعائم الداخلية في المنشآت الدينية والمدنية

١ ـ الاعمدة والتيجان :

ا ـ في العصر الاموي : لما كانت أعمدة المسجد الجامع بقرطبة وقت انشائه متخذة من الكنائس الرومانية المتخربة ، واطلال الابنية القوطية لتيسير بنيان المسجد والفراغ منه سريعا ، فقد اتخذ البناؤون لها قواعد مختلفة الاحجام لتسوية ارتفاع العمد ، في حين خلت زيادات المسجد من هذا العنصر ، واعني به القواعد ، فأصبحت الاعمدة مجردة من قواعدها ، وذلك بعد ان اصبح من السهل نحت هذه الاعمدة واعدادها للاغراض المختلفة ، ولما كان ارتفاع الاعمدة القديمة محدودا فقد اضطر عرفاء البناء في عصر الامير عبد الرحمن الى التحايل على رفع سمك بيت الصلاة الى ما يقرب من ضعف ارتفاعه بالاعمدة ، فتوصلوا الى حل معماري اصيل لم يسبقهم اليه بنّاء وثني او مسيحي او مسلم ، اذ أطلوا من ارتفاع الحدائر التي تنبت منها العقود الحاملة للاسقف الخشبية ، فجعلوا ارتفاعها مترين تقريبا بدلا من نصف المتر ، وهو الارتفاع المعروف للحدارة ، وحولوا الحدائر على هذا النحو الى دعائم مركبة فوق تيجان العمد (٦٣) ، وقد ساد هذا النظام بنيان المسجد في العهود التالية .

---

(٦٣) السيد عبد العزيز سالم ، مظاهر الاصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، من بحوث ندوة الحضارة الاسلامية التي عقدت بالاسكندرية في اكتوبر ١٩٧٦ .

وتمتاز أعمدة زيادة الحكم المستنصر بأنهامن الرخام الاسود المجزع بالبياض ، تيجانها كورنثية وتتناوب مع أعمدة وردية اللون تيجانهامن النوع المركب . أما من حيث ارتفاع سواري العمد فقد التزم العرفاء بنفس الارتفاع الذي كانت عليه فى البنية الاولى للمسجد زمن الامير عبد الرحمن بن معاوية .

وعندما شرع عبد الرحمن الناصر فى بنيان مدينة الزهراء عهد بأعمال البناء الى عبد الله بن يونس عريف البنائين وعلي بن جعفر الاسكندراني وحسن بن محمد (٦٤) ، فكان عريف البنائين يتولى جلب الرخام اللازم لصناعة السواري وتيجان الاعمدة وقواعدها من قرطاجنة وافريقية وتونس، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة أوكبيرة بعشرة دنانير ، فى حين كان يصلهم على كل سارية بثمانية مثاقيل من الذهب (٦٥) . ويذكر ابن غالب نقلا عن ابن حيان أن عدد سوارى الرخام التي استخدمت فى بناء الزهراء ما بين صغيرة وكبيرة حاملة ومحمولة فى عصر عبد الرحمن الناصر بلغ ٤٣١٣ سارية ، منها ١٠١٣ سارية من افريقية ، و ١٩ سارية من القسطنطينية ، و ١٤٠ سارية هدية من ملك رومه ، وسائرها من مقاطع الرخام فى الاندلس ، فالرخام المجزع من كورة رية (٦٦) ، والابيض من المرية (٦٧) والوردى والاخضر من أسفاقس وقرطاجنة (٦٨) .

وتمتاز تيجان أعمدة الزيادة الحكمية فى جامع قرطبة بأوراقها ولفائفها الملساء ، فى حين تتميز تيجان أعمدة الزهراء وطفوفها وقواعدها ، بزخارف محفورة حفرا غائرا يظهر التباين الحاد بين الظل والضوء وهو أسلوب فى النحت ينحو نحو التقاليد البيزنطية ، وقد كانت معظم التيجان مزودة بنقوش كتابية ، من أقدمها نقش يحمل اسم عبد الرحمن الناصر وفتاة شنيف وعبارة نصها عمل سعد وسنة ٣٤٢ (٦٩) . كما ان بعض التيجان المكتشفة فى أطلال الزهراء تحمل أسماء فى جملتها مظفر وبدر ونصر وفتح وأفلح وطارق ومحمد بن سعد ورشيق وكلهم من فتيان الخليفة وخدمه (٧٠) . ومن المعروف ان أطلال الزهراء وخرائبها وبقاياقصورها نبشت فى عهد بني جهور ، واستغلت هذه الاطلال استغلالا منظما فاستؤصلت القصور بالهدم وبيع ما بها من سواري وعمد من الرخام والمرمر على يدي ابن باشة ، وفى ذلك يقول ابن حيان : « وكانت رسل الاملاك (يقصد

---

(٦٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٤ ـ المقرى ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٦٥) ابن غالب الاندلسي ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ٣٢ .

(٦٦) المقرى ، ج ٢ ص ١٠٤

(٦٧) عرفت المرية بثرائها فى الرخام الصقيل (ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، ص ٨٣ ـ المقرى ، ج ١ ص ١٥٣ ، ج ٢ ص ٢٠٧) .

(٦٨) المقرى ، ج ٢ ص ٦٧ ، ١٠٤ .

(٦٩) Ocana Jumenez, Inscripciones arabes descubiertos en Madinat al-Zahra, en 1944, al-Andalus, Vo. X, 1945, p. 154-159.

(٧٠) جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ، ص ١٠٣

رسل ملوك الطوائف) تأتيه (أي الى ابن باشة)لشراء تلك الآلات بأغلى الاثمان فيبدلها هو فيأنواع **الضلالات ... »** (٧١) . **ولم يخل اثر في اشبيليةايام** بني عباد من عمد وتيجان انتزعت من **الزهراء واعيد استخدامها في ابنية هذا العصر كما هو**واضح في بعض اجزاء من قصر اشبيلية .

وعندما شرع الموحدون في بنيان جامعالقصبة الموحدي باشبيلية ، اقتلعت من قصور **بني عباد بعض اعمدة وتيجانها الزهراويةووضعتفي المئذنة المعروفة اليوم بالخيرالدا ، وما زالت** بعض تيجان واعمدة من هذا الاسلوب الزهراويترصع القسم العلوي من المئذنة .

• • •

ب ـ في عصر الطوائف : وفي هذا العصرتعرضتالاعمدة وتيجانها لبعض التغيير،فسواري الاعمدة استدقت وازداد ارتفاعها وبدت تتسمبالنحولة والرشاقة ، ويتمثل هذا النوع في قاعة صغيرة بقصبة مالقة تنتهي جنوبا بشرفة رائعةتطل على البحر من أعلى جبل فارو، وتمتاز أعمدة هذه القاعة برشاقتها وارتفاعها الواضح . ويرجعتاريخ هذه القاعة الى النصف الاول من القرن الخامس الهجري .

أما تيجان الاعمدة فقد تطورتبعض التطور،فالى جانب النوع التقليدي الذي شاع في عصر الخلافة الاموية ظهر نوع من التيجان تحولت فيهورقة شوكة اليهود (الاكنثس) من صورتها **المنطلقة الى صورة قريبتها الى فصائل الزهور** ،وفي نفس الوقت ازدادت نسبة نمو التيجان في **الارتفاع على الضعف بالقياس الى الاتساع** ، كماهو الحال في تيجان اعمدة قصر الجعفرية بسرقسطة ، كذلك تحولت النهاية المدببة لورقةشوكة اليهود الى تجعدات تبتعث من التوريق ، **وحلت محل الفروع المزدوجة اوراق كبيرة مثقوبة**او مجموعة من العقود الصغيرة المفصصة تترابط فيما بينها بأعلى التاج وتقوم على عمد صغيرة غنية بالزخرفة ، ومن وراء التجعيدات المزدوجة كانت تسجل بعض كتابات تحمل امام اسم الامير كما هوواضح في احد هذه التيجان ، حيث نقش فيه اسم المقتدر بالله ، او عبارات الحمد لله**والبركة** (٧٢) .

جـ ـ في عصر سلاطين غرناطة : استخدمعرفاء غرناطة انواعا من الاعمدة الرفيعة الرشيقة في سائر منشآتهم المدنية والدينية ، وتمتاز هذهالاعمدة الى جانب رشاقتها ونحولتها بانه يعلوها عند الرأس حلقات وافاريز بارزة ، كما تنتهي منادناها بهذه الحلية . كذلك ابتكر المسلمون في هذا العصر تيجانامكعبة الشكل تكسوها توريقاتلمراوح النخيل الملساء منحنية او مبسوطة او

---

(٧١) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٢ قسم ١ ص ١١١ .

(٧٢) جومث موريتو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٢٦٨ .

ملتفة فى تناسق وانسجام يسترعي النظر . وهناك نوع آخر من التيجان الفرناطية ونعني به التيجان المقربصة التي تكسوها المقربصات لتملأ الاوجه الاربعة للتيجان ، وقد انتشر النوع الاول فى قاعات هو السباع وقصر المشور بحراء غرناطة وفى داخل قاعات قصر شنيل وفى دار الحرة ، وفى القيسارية بغرناطة . فى حين استخدم النوعان فى قصر جنة العريف وفى قاعة السفراء وبهو الريحان بقصر الحمراء (٧٣) .

• • •

٢ ـ **العقود** : ابتكر بناة جامع قرطبة نظاما معماريا فريدا من نوعه فى بنيان بيت الصلاة ، هو نظام ازدواج العقود وتراكبها على طابقين بهدف **رفع سقف الجامع الى ثلاثة امثاله ، وتيسير نفاذ** الهواء والضوء داخل مسطح بيت الصلاة الفسيح . ويجمع علماء الآثار الاسلامية على ان فكرة ازدواج العقود على نحو يجعلها تنتظم فى طابقين بجامع قرطبة فكرة جديدة واصيلة فى العمارة الاسلامية، وانها تعتبر ابتداعا معماريا فريدا من نوعه لم يسبق له ان نفذ فى اي اثر ديني اسلامي قبل انشاء هذا الجامع، بهدف رفع الاسقف المنخفضة فى المسجد بحيث يتضاعف ارتفاعها عن الارتفاع الطبيعي لها ، وفى نفس الوقت بقصد الاستعاضة عن الاوتار الخشبية التقليدية التي تضمن ثبات العمد واستقرارها فى مواضعها ، وابطال مفعول الدفع الذي تمارسه العقود والاسقف على الاعمدة، بعقود منفوخة تجاوزت نصف الدائرة تنطلق فى الفراغ الممتد ما بين العمد والعقود العليا التي تحمل الاسقف . وعلى هذا الاساس اصبح من وظيفة الطابق الادنى للعقود ، وهو ما نسميه بالعقود الهوائية التي تنبت من الاذرع الطويلة لقرم التيجان ، الربط بين رؤوس العمد واكساب بنية المسجد رشاقة وفخامة وتناسقا وانسجاما ، وتثبيت العمد فيما بينها ، فى حين اصبحت العقود العليا القائمة على الدعائم تحمل اسقف الجامع . ولم يقنع مهندس الجامع بما احدثه بابتكاره المعماري من تأثيرات جمالية ترتبت على استخدام العقود الهوائية الطائرة فى الفراغ ، بل اراد ان يؤكد الاحساس بجمال هذه العقود بحلية بسيطة قوامها تناوب اللونين الاحمر والاصفر الشاحب ، فاتخذ سنجات العقود بحيث تتعاقب فيها الكتلة الحجرية الصفراء مع ثلاثة صفوف متلاحمة من الآجر ، **وطبق ذلك النظام على طابقي العقود** (٧٤).

ولا يفرق **الادريسي** بين العقد المتجاوز لنصف الدائرة (العقد الهوائي) والعقد نصف الدائري (الحامل للسقف) فهو يطلق عليها اسم « **قسي دائرة** » (٧٥) . **والواقع ان العقد نصف**

---

(٧٣) Torres Balbas, Ars Hispaniae, i. IV, Madrid, 1949, p. 172.

(٧٤) **السيد عبد العزيز سالم ، مظاهر الاصالة فى بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، من بحوث ندوة الحضارة الاسلامية بالاسكندرية ، اكتوبر ١٩٧٦ .**

(٧٥) **الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق ديسين لامار ، ص ١٤**

الدائري والعقد المتجاوز لنصف الدائرة يسيطران وحدهما على جميع عقود المسجد الجامع بقرطبة ، وان كان المتجاوز يفوق العقد نصف الدائري في الانتشار ، فنشاهده في عقود الابواب الخارجية وفي واجهة المحراب وعلى المئذنة ، وحول صحن الجامع ، بل نراه يسود في جميع منشآت الدولة الاموية في الاندلس ، وعلى الاخص مدينة الزهراء. ولكن العقود المتجاوزة تختلف في نسبها باختلاف الزمان الذي اقيمت فيه ، فتكوين العقد المتجاوز في بيت الصلاة القديم (**الذي يرجع تاريخ بنائه الى** عبد الرحمن الداخل) يسجل استمرارا للتقاليد الاسبانية القوطية ، ويعتقد الاستاذ **كامبس أي كاثورلا** بأن عقد باب سان استيبان المعروف في العصر الاسلامي بباب الوزراء هو أول عقد اسلامي التكوين ، اذ تحرر في تخطيطه من التقاليد القوطية ، ويمثل مرحلة انتقال بين العقود المتجاوزة في المسجد الاول وبين العقود المتجاوزة في عصر الخلافة ، ونظام التشنيج هنا (أي توزيع سنجات العقود) يقتصر على الجزء المركزي من **العقد وهو الجزء الحي فيه** (٧٦) .

ثم تعرض العقد المتجاوز الذي يمكن أن نسميه أيضا بالعقد المنفوخ في عصر الخلافة لتطور سريع ، فان توزيع السنجات في العقد اصبح يتشفع في ذلك العصر من مركز يقع في وسط الخط الممتد بين الحدائر ، في حين أصبحت الدائرة السفلى من العقد تتبع نفس نسبة نصف الدائرة ، وفي هذه الحالة فان دائرة العقد العليا لم تعد تتمركز مع نفس مركز الدائرة السفلى ، وترتب على ذلك أن مفتاح العقد اصبح يزيد في الطول عن السنجات الاخرى . ويعتقد **كامبس أي كاثورلا** أن ذلك الشكل يمثل تأثيرا شرقيا **وافدا من العراق** (٧٧) **ولكننا نلاحظ في العقود** الزخرفية مبالغة واضحة في اغلاق العقد ، كما يتمثل في عقود النوافذ الثلاثية بمئذنة جامع **قرطبة ، وفي هذه العقود لا يقتصر التسنيج على** نصف العقد ، وانما يستمر في خطوط تلتقي مع المركز الواقع في منتصف الخط الممتد بين حدارتي العقد ، وبينما تقتصر سنجات العقود المنفوخة الفاصلة بين البلاطات على انصاف العقود ، فان عقد المحراب ، والعقدين اللذين يكتنفانه شرقا وغربا ، والعقود التي تنتفخ على الواجهة الغربية ، والعقد الموصول بين مصلى فيلا فيثوسا وزيادة عبد الرحمن الاوسط كلها عقود كاملة التسنيج .

وقد ترتب على زيادة طول مفاتيح العقد في التسنيج القائم على مركز خط الحدائر ان بدا العقد يميل الى الشكل المنكسر ، ثم تطور شكل العقد الى عقد منفوخ يميل الى الانكسار ، وقد ظهر هذا النوع من العقود في زيادة الحكم في عقدي المدخل الى الاسطوانين المجاورين لاسطوان **المحراب ، كذلك يتجلى العقد المنكسر في** زيادة المنصور بن ابي عامر ، لاسيما في العقود التي تعلو النوافذ الرخامية ويعتقد الاستاذ **جومث مورينو** أن تكوين هذا العقد يمكن أن نلمحه في العقد متعدد الفصوص ، أو انه استوحى من **تقاطع العقود المنفوخة فيما بينها** (٧٨) .

---

(٧٦) Camps y Cazorla, Modulo, proporciones y compsicion en la arquitectura califal de cordoba, Madrid 1953, p. 29.

(٧٧) Camps y cazorla, op. cit. p. 33 — Torres Balbas, Arte hisp. musulman, p. 488.

(٧٨) GomezMoreno el entrecruzamiento de arcadas, p. 6

وفى هذا العصر يظهر العقد ثلاثي الفصوص لاول مرة فى الجامع مختلطا بالزخرفة فى النافذة اليمنى من باب سان استيبان ، ولكن استخدام هذا النوع من العقود التي يسميها الادريسي « صنعة القرطة » (٧٩) لم يلبث ان ساد فى زيادتي الحكم المستنصر والمنصور ، كما ساد فى الزيادة الحكمية العقود المفصصة والعقود متعددة الفصوص أو المقصوصة ، ويسميها الادريسي « صناعة الفص » ، وعلى الرغم من ان هذه العقود المفصصة شرقية الاصل الا انها اقتصرت فى المشرق الاسلامي على مجرد الزخرفة ، فى حين تقوم فى قرطبة بوظيفة معمارية ، كتحمل الضغط العلوي، كما انها فى قرطبة تفوق نظائرها الشرقية من حيث التنوع ومن حيث المظهر الجمالي (٨٠) . وجامع قرطبة يشتمل على نوعين من العقود المفصصة :

١ ــ العقد متعدد الفصوص نصف الدائري ونشاهده فى مدخل البلاط الاوسط من زيادة الحكم ، وهو عقد منفوخ فى تكوينه ثم جزئت حلقته الى ٢١ فصا بارزا ، كما نشاهده على احد ابواب الواجهة الغربية لبيت الصلاة .

٢ ــ العقد متعدد الفصوص المنكسر ، وقد انتشر فى زيادتي الحكم والمنصور ، وشاع استخدام العقد خماسي الفصوص ، فى حين ندر استخدام العقد ثلاثي الفصوص ، بحيث اقتصر على القسم الاعلى من واجهة المحراب ، وفى داخل جوفة المحراب نفسه . كذلك نشاهده فى مسجد باب المردوم بطليطلة بأعلى الواجهة الشمالية الشرقية، وفى آثار مدينة الزهراء .

كذلك ظهرت فى جامع قرطبة لأول مرة شبكات من العقود التى ترتكز عليها القباب توافرت فيها القوة والوثاقة للقيام بهذه الوظيفة ، فانشاء القباب القائمة على الضلوع البارزة فى جامع قرطبة يتطلب ركائز ضخمة يمكن ان تتحمل الضغط ، ولايمكن للاعمدة الرخامية الضعيفة المفروسة فى بيت الصلاة ان تؤدى هذه المهمة ، وكان من الطبيعى ان يفكر المهندسون فى حل لهذه المشكلة يكفل تحقيق الدعم المطلوب مع تجنب اقامة دعائم ضخمة عند المقصورة الخلافية ، لأن وجود امثالها من شأنه ان يقطع وحدة نظام التدعيم المعمارى فى المسجد ويفسد المظهر الجمالى الذى يسود بيت الصلاة ، ويحجب اروع العناصر المعمارية والزخرفية فى بيت الصلاة عن انظار جموع المصلين. وقد اثبت عرفاء البناء القرطبيون براعتهم فى حل المشكلة على نحو اصيل ، ففى كل من الركنين الاماميين للأسطوان المزدوج الذى ترتفع عليه قاعدة قبة المحراب ، ركز العرفاء عمودين بدلا من عمود واحد ، ونصبوا فى الفراغ القائم بينهما عمودين آخرين فى الواجهة الشمالية ، وعمودا واحدا فى كل من الجانبين القصيرين من جوانب الاسطوان المزدوج ، وامكن لهذه الاعمدة ان تحمل طابقين من العقود ، الادنى من النوع خماسي الفصوص ، والأعلى من النوع المتجاوز المنفوخ ، وحرصا على تشبيك الطابقين على نحو يتيح توزيع الضغط العلوى توزيعا منظما ، أوصل العرفاء

---

(٧٩) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٦

(٨٠) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ص ٣٧٠ .

بينهما نحورا ثالثة مستديرة ومفصصة (٨١) تمتد بين رؤوس العقود المفصصة السفلى يمينا ويسارا لتلتحم ببطون العقود العليا مؤلفة بذلك تشبيكا متماسكا يسهل بواسطته توزيع الدفع العلوى الذى تمارسه القباب توزيعا تجنب تركيزه على الاعمدة .

وهكذا أمكن لمهندس جامع قرطبة البارع ان يرفع فوق نظام التدعيم الواهن قواعد ضخمة ثقيلة تتوجها قباب من الحجر ، وأتم ذلك فى براعة فنية يمكن ان يؤديها بناء ، ونفذه بحساسية مرهفة يعبر عنها فنان (٨٢) . والواقع أن مهندس الحكم بتشبيكه لهذه البنية (٨٣) على هذا النحو من الابداع الفنى والأصالة ، اثبت نجاحه فى تطبيق فكرة تقاطع الخطوط الزخرفية على عناصر معمارية ، والفكرة فى حد ذاتها ثورة معمارية وابداع اصيل لم يسبق اليه فن معمارى ، ذلك ان تقاطع العقود وتشابكها له مزيتان اشار اليهما ابن عذارى هما الوثاقة والجمال ، وقد حرص مهندس الحكم على بناء قباب قوية وثيقة البنيان على عمد مرتفعة للغاية حتى تتيح للضوء أن يتسلل من متكآت الرخام بنوافذ القباب وينفذ من تشبيكاتها الى مقصورة الجامع ، ويحدث فى نفس الوقت التأثير الجمالى اللائق بالقبلة . وكما وفق مهندس الحكم فى تشبيك قاعدة قبة المحراب والقبتين المجاورتين ، وفق أيضا فى قبة المدخل للزيادة الحكمية ، وتقوم على تشبيك من العقود المفصصة ، السفلى منها تؤدى وظيفة معمارية ، اما النحور التى تعلوها فمظهرها زخرفى خالص ، وان كانت تخفى تحتها بناء من الحجر له قيم بنائية واضحة ، ولا شك أن تقاطع العقود المفصصة مع اخرى متجاوزة منفوخة يشكل ابتكارا معماريا ، فمن وظائف هذه التشابكات لحم طبقات العقود فيما بينها ، وتوزيع الضغوط التى تمارسها القباب عليها توزيعا أكثر منطقية (٨٤)

وفى عصر دويلات الطوائف انتشرت بوجه خاص العقود المفصصة والعقود المنفوخة ، كما ظهرت العقود المفصصة المتشابكة والمتراكبة ، فى جميع المنشآت المدنية ، كذلك ظهر نوع جديد من العقود تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات . اما العقود المفصصة فتتمثل فى طليطلة فى كل من مسجدى باب المردوم والدباغين حيث نشاهد العقد خماسى الفصوص يعلو أحد مداخل الواجهة الجنوبية الغربية ، كما نشاهد العقد الثلاثى الفصوص على الواجهة الشمالية الشرقية المطلة على الصحن يحيط بعقد متجاوز منفوخ ، ونشاهد هذا العقد الثلاثى ايضا فى احدى النوافذ الزخرفية بمسجد الدباغين . كذلك شاع استخدام العقد خماسى الفصوص فى مصلى

---

(٨١) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٦

(٨٢) Torres Balbas, Arte califal, enHistoria de Espana, p. 305

(٨٣) ورد هذا الاصطلاح « تشبيك » فى النقش التاريخي الذي يغطي الطرة الكبرى التي تدور بعقد المحراب .
(Levi Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Paris, 1932, p. 15)

(٨٤) Ricard, Pour comprendre l'art musulman, Paris 1924, p. 132.
Gomez Moreno, el entrecruzamiento, p. 6 — Marçais, l'architecture musulmane, d'occident, p. 148.

قصر الجعفرية بسرقسطة حيث تزدان به الأجزاء العليا من جدران المصلى . واستخدم فى المدخل الجنوبى ببهو الجعفرية العقد متعدد الفصوص المنكسر الذى نراه طورا يتالف من احد عشر فصا ، وطورا من تسعة فصوص ، وطورا نشاهده وقد تراكبت على فصوصه بالتناوب حدائر صغيرة تنبت منها عقود خماسية الفصوص تتداخل معها نحور اخرى لأقواس مفصصة بلفت بالعقد **الرئيسى الغاية فى التعقيد الجنونى . ويسود** العقد المفصص ايضا فى احدى قاعات قصبة بنى حمود بمالقة ، ولكنه فى هذه القاعة يبدو على شكل تشابك يماثل الى حد كبير تشبيك قاعدة قبة المحراب بجامع قرطبة حيث ركبت على العقد **المفصص الاصلى نحور ثالثة هي امتداد لنحور** العقود .

اما العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة فينتشر فى عصر الطوائف فى كثير من المنشآت المدنية ، فنشاهده فى بهو الجص ، كما نشاهده فى بعض عقود قاعة السفراء بقصر اشبيلية التى يعتقد الاستاذ جيريرو لوبيو انها من بقايا قصر الثريا العبادى ، وتتمثل هذه العقود فى العقد المنفوخ ثلاثى الفتحات الذى يشبه نظيره فى المجلس الفنى بقصر الزهراء ، كما يشبه نظيره فى القاعات الملكية بقصبة مالقة . ويؤكد الاستاذ لوبيو ان **قرطبة كانت مصدر الهام فنى لملوك الطوائف (٨٥)**. كذلك استخدم العقد المنفوخ كثيرا فى طليطلة فى عقود مسجد باب المردوم الخارجية والداخلية ، حيث نراه على الواجهة الجنوبية اما منفردا على احد الابواب الثلاثة او متشابكا مع غيره من العقود ، فى حين يسود داخل بيت الصلاة فى هذا المسجد وفى مسجد الدباغين ، كما نشاهده ينتصر ويسود فى العمارة الحربية بطليطلة التى ترجع الى عصر الطوائف ، واعنى بها مدخل باب **شاقرة القديم بربض طليطلة ، فنراه هنا على شكل** حدوة الفرس مركزه سنج ، ويقوم على منكبين على شكل هرم ناقص مقلوب ، ويشغل النصف الادنى منه عتب ضخم قطعة واحدة تندمج مع **كتله الجانبية (٨٦) . ويشبه هذا العقد عقدا آخر** هو عقد باب القنطرة الذى لم يبق منه سوى عضاداته . وفى اشبيلية أمكننى التوصل الى كشف باب كان ينفتح فى القصر القديم المعروف بدار الامارة الذى بناه سعيد بن المنذر المعروف بابن **السليم فيما يقرب من سنة ٣٠١ هـ (٨٧)** ، ومايزال هذا الباب قائما ، ويحتفظ بعقده المتجاوز المنفوخ الذى يقتصر تسنيجه على القسم المركزى من العقد على النحو الذى نشاهده فى ابواب قرطبة من عصر الخلافة ، كما أن ترتيب صفوف الحجارة الضخمة التى يتالف منها السور على أساس كتلة تنتظم طولا مع كتلة تنتظم عرضا يقطع بانها من أسلوب معمارى أقدم من الاسلوب المتبع فى انشاء العقود فى عصر الطوائف، كما يتجلى فى عقود قصبة مالقة وفى عقد المحراب بمصلى الجعفرية وفى باب موناياتا من ابواب قصبة غرناطة القديمة ، وبقايا عقد قنطرة وادى حدد بغرناطة .

---

(٨٥) Gnerrero Lovillo, al-Qast al-Mubarak, sevilla, 1974, pp. 104-109.

(٨٦) **جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا** ، ص ٢٣٥ .

(٨٧) **الحميري ، صفة جزيرة الاندلس تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢٠**

اما النوع الجديد من العقود التى ظهرت فى سرقسطة فى عصر بنى هـود ففيهـا اسراف فى التعقيد الزخرفى ، هذا النوع من العقود يتكون من طبقتين متراكبتين ومتداخلتين فى آن واحد ، الدنيا منهما عقود مفصصة متقاطعة فيما بينهـا تنبت منها عقود تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات ، وفيها نشهد اتجاه الفن الاندلسى اذذاك الى الاسراف فى التعقيد والغلو فى حشـد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعة التى تظهـر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة. ويزين جدران المصلى عقد اصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط بالمنحنيات، ويحيط به افريز بارز يتخذ الشـكل نفسـه .ويحتفظ متحف مدريد ومتحف سرقسطة بعقدين كانا يزينان القاعة الرئيسية أو مجلس الذهب ،وفيها يستحيل على المـرء ان يتقصى امتـداد خطوطها ، اذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينهـا بطريقة ساحرة فريدة (٨٨) .

• • •

واذا انتقلنا الى عصرى المرابطين والموحدين الفينا العقد المنفوخ المنكسر يسود جميع المبانى الدينية والمدنية على السواء ، ويتمثل ذلك فى جامع القصبة الكبير باشبيلية ، ومسجد كـواتر وآبيتان بنواحى اشبيلية ، وقصر السيد بقرطبة،وواجهة قصر الجص باشبيلية . كما ينفتح فى جدران مئذنة جامع اشبيلية نوافذ توامية معقودة بعقود مفصصة خماسية الفصـوص واخـرى منفوخة متجاوزة على التنـاوب ، يحيـط بكل مجموعة منها عقد خارجى مفصـص تتناوب فى فصوصه فصوص كبيرة واخرى صغيرة ،ويتخذ بعضها شكلا ثعبانيا وبعضـها الآخر مايشـبه المقربصات . ونشهد فى برج الذهب باشـبيلية زخارف معمارية تمثل عقودا توامية منكسرة ، واخرى من النوع المفصص الذى يتناوب فيـه فصوص صغيرة واخرى كبيرة ، ويحيط بهـذا النوع من العقود عقـد خارجى نصـف دائرى مقصوص أو متعدد الفصوص .

واذا انتقلنا الى عصر سلاطين غرناطة نشهد انواعا متعددة من العقود فى مختلف انواع المنشآت المدنية والدينية وحتى الحربية : فهناك العقود متعددة الفصوص، وعقود منفوخة متجاوزة نصف الدائرة ومنكسرة ، وعقود نصف دائرية مطولة ،واخرى تتناوب فيها الفصوص الصغيرة والفصوص الكبيرة وتغطى بطونها وسائد مضلعة ، وعقـود متجاوزة نصف الدائرة تحيط بها سنجات زخرفية تكسوها التوريقات ويدور حولها فصوص ،وتملأ بطن العقد لفائف صغيرة على شكل وسادة كما هو الحال فى عقد المحراب الملاصق لقصر المشـور بحمراء غرناطة ، واهم هذه العقود جميعا واجملها على السواء العقود المقربصة التى تغطى بواطنها المقربصات المتدلية ملونة ومذهبة واحدة وتسود فى القاعات المطلة على بهو السباع ومدخل قاعة السفراء بقصر الريحان ، وفى قمريات دار عايشة

---

(٨٨) Galiay, el castillo de la aljaferia, Zaragoza, 1906, p. 20.
سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، ص ٩٦ .

بداخل قاعة السفراء ، وفى بطن عقد المدخل ببرج الأسيرة ، وفى داخل الحوش الشمالى لبهو الساقية بقصر جنة العريف . وفى هذه العقود جميعا نلاحظ اسراف الفنان فى الفلو الزخرفى ، مع الحرص على ايجاد نوع من التناسق والايقاع فى توزيع الزخارف المكتظة فى بواطن العقود وعلى مسطحاتها الداخلية والخارجية ، الامر الذى اكسب هذه العقود قيما جمالية .

ولاشك ان هذا الفلو الزخرفى الذى اتسمت به عقود قصر الحمراء انما جاء نتيجة طبيعية للتطور الذى تعرضت له زخارف العقود منذ العصر الاموى مرورا بعصر الطوائف وعصر الموحدين ، فاكتظاظ بواطن العقود بقاعات قصر الحمراء بالزخارف المتنوعة من توريقات نباتية الى وسائد مفصصة الى مقربصات سبقه حالات مشابهة فى جامع اشبيلية تتمثل فيما يعرف بالزخرفة الكثيفة التى تزين الشريط الأوسط من عقد المدخل المؤدى الى الصحن ، وتبطنه توريقات من سعف النخيل ملساء تخلو من السيقان تطوقها خطوط محززة أطرافها تنحنى فى تجعدات وتتلاحم فى تناسق وايقاع ، وترتسم فى بعضها خطوط لولبية محززة ، والتوريقات الخيلية حفرت على طبقتين مما اضفى عليها نوعا من التباين بين الظلمة والنور .

وهكذا يتبين لنا أن تعقد الزخارف ببواطن العقود فى قصور غرناطة انما هو تطور لهذا الاتجاه الزخرفى الذى بدأ يسود فى سرقسطة فى عصر الطوائف الى أن بلغ ذروة تطوره فى عصر بنى نصر .

اما الشبكات الزخرفية التى غطت واجهات القاعات والبرطلات وسادت فى جميع قاعات وجدران قصور الحمراء فليست فى الحقيقة الا تطورا متكاملا للحلقات للصورة الاولية التى ظهرت فى جامع قرطبة ثم انتقلت الى عصر الطوائف بعدان فقدت وظيفتها المعمارية واستبدلت بالمظهر الزخرفى الفكرية المعمارية الاصيلة التى ابتكرها مهندس جامع قرطبة ، ولم تلبث الفكرة الزخرفية لهذه التشبيكات أن طفت فى عصر الموحدين وملأت مسطحات واجهات القصور وجوانب الخيرالدا ، **ثم اصبحت فى عصر بنى نصر العنصر البارز فى جميع الزخارف والتنميقات .**

• • •

ثالثا : الاسقف والقباب والقبوات

(١) الاسقف الخشبية : احتفظ جامع قرطبة حتى طليعة القرن الثامن عشر بأسقفه الأفقية التى تتكون من لوحات خشبية مسطحة (**سموات**) (٨٩) **مثبتة على عوارض تمتد عرضا** بأعلى البلاطات (جوائز) ، ثم تعلوها بامتداد البلاطات أسطح منشورية الشكل مكسوة بالقراميد ولقد ازيلت هذه الأسقف الخشبية فيما بين عامى ١٧١٣ ، ١٧٢٣ لتآكلها ، **واقيم مكانها قبوات** متعارضة خفيفة .

---

(٨٩) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٤

ويرجع سبب تعرضها للتآكل الى تسرب كمية من مياه الامطار الى السقف المسطح واهمال تدارك ذلك فى الوقت المناسب . ولحسن الحظ اعيد استخدام اللوحات المتآكلة فى الهياكل الخشبية الداخلية للأسطح المنشورية ، وقد تم اكتشاف عدد كبير من اللوحات والجوائز المنتزعة سنة ١٨٧٥ اثناء العمل فى اصلاح اسقف مصلى سان بدرو ومصلى سان لرنثو الداخلين فى زيادة الحكم ، وشجعت هذه الكشوف الباحثين على مواصلة البحث والكشف عن مزيد منها ، وتمكن المهندس **فلاسكث بوسكو** من اعادة تركيب الاسقف الخشبية فى البلاط الاوسط كله وفى قطاع يمتد على طول البلاطات السبع الصغرى من زيادة الحكم المستنصر ، أما بقية الأسقف الخشبية المتآكلة فقد عرضت على الجمهور فى المجنبتين الشرقية والغربية من الصحن وفى متحف الجامع (٩٠) **ويعتقد المهندس الاثرى دون فيلت هرناندث** ان هذه الاسقف اقيمت فى القرن الرابع الهجرى ، وانها هي نفس الاسقف التى وصفها الشريف الادريسى فى القرن الخامس الهجرى ، وهي نفس الاسقف التى شاهدها **امبروسيو دى مورااليس** فى القرن السادس عشر **وجومث برافو** فى القرن الثامن عشر قبل أن تبدل الاسقف **الحالية بالاسقف القديمة (٩١) . وقد اثبت هرناندث** صحة الارقام التى أوردها الادريسى ودقتها البالغة فيما يتعلق بمقاييسها ، واستنتج من ذلك بأن اللوحات المسطحة والجوائز كانت تستقر افقيا فى وضع عرضى بالنسبة لمحاور البلاطات التسع عشرة ، كما أن زخارف الجوائز تتشابه مع زخارف اللوحات ، ولكن الزخارف **تختلف فى تكويناتها فى جميع اللوحات (٩٢) . ومن المعتقد** أن اسقف جامع قرطبة ظلت حتى عصر الناصر لدين الله مقامة على الطريقة السورية اى منشورية او هرمية مفرغة ، ثم تغير ذلك كله زمن الناصر عندما تعرض بيت الصلاة للتلف ، فاستلزم الامر اجراء اصلاحات فيه ، فان اسلوب الزخرفة النباتية فى كثير من الاسقف الخشبية المسطحة يشبه بعض التكوينات الزخرفية فى بعض الدعائم وقواعد الاعمدة فى مدينة الزهراء ، بل أن بعض زخارف اللوحات المكتشفة تشبه

---

(٩٠) Felix Hernandez, la techumbre de la gran mezquita de cordoba, en archivo espanol de arte y arqueologia, t. XII, 1928, p. 190-192.

سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ج ١ ص ٣٨٠

(٩١) F. Hernandez, op. cit. p. 197 — Torres Balbas, arte Hispano musulman, p. 540.

(٩٢) F. Hernandez, op. cit. p. 219.

ويصف الادريسي هذه الاسقف بقوله : « وسقفه كله سموات خشب مسمرة فى جوائز سقفه ، وجميع خشب هذا المسجد من عيدان الصنوبر الطرطوشي ارتفاع حد الجائزة شبر والمر فى عرض شبر الا قلالة اصابع فى طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلف جائزة ، والسموات التي ذكرناها هي كلها ضروب الصنائع المنشاة من الضروب المسدسة والمؤربى وهي صنع الفص الدائري والمواهن لا يشبه بعضها بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد احكم ترتيبها وابدع تلوينها بانواع الحمرة الزجفرية والبياض الاسفيداجي والزرقة اللازوردية والزرقون البادوتي والخضرة الزنجارية والتكحيل النفسي ، تروق العيوان ، وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ، ومختلفان الوانها وتقسيمها » (الادريسي ، المصدر السابق ص ٤) .

بعض التكوينات الزخرفية فى احدى العلب العاجية التى يرجع تاريخ صناعتها الى عهده ، وبعض اللوحات الخشبية يحمل أسماء : ابن فتح وحاتم ورشيق (٩٣) ، **وأغلب الظن ان رشيق هذا هو** نفس الفنان الذى سجل اسمه فى احدى زخارف قصر عبد الرحمن الناصر فى الزهراء كما نشاهد **اسمه مدونا على قطعة من الخزف فى حفريات** هذه المدينة . ونعتقد أيضا ان الحكم المستنصر والمنصور تابعا نفس الطريقة فى تسقيف الجامع، ولكنهما استكثرا من الزخارف الهندسية التى تغلب عليها الطابع العراقى ، الامر الذى ادى الى احتمال تعرض هذه اللوحات للتأثيرات **العباسية (٩٤) .**

كذلك كانت أسقف قاعات قصر الخلافة بمدينة الزهراء من أعواد الصنوبر ، فقد احتفظت بعض المواضع بجدران اكثر ارتفاعا تبدو فيها الحوفات التى كانت تثبت فيها الجوائز الخشبية بوضوح ، وكانت الاسطح منشورية الشكل مغطاة بالقراميد المقعرة التى يميل لونها الى الصفرة وكانت مياه الامطار تتجمع بين الاسقف المائلة فى قنوات تصب فى ميازيب عثر على واحد منها أشبه بالكابولى المزود باللفائف .. والاسقف على هذا النحو لا تختلف كثيرا عن أسقف جامع قرطبة التى تبدو من أعلى مؤلله .

ومن عصر الطوائف تبقت لنا آثار كوابيل طويلة لجوائز السقف من غرناطة زاخرة بزخارف من التوريقات ، وفى أطرافها ورقتان مدببتان بينهما برعم مزين فى قمته ويلتف حول نفسه ، **وتشبه هذه الكوابيل تماما كوابيل جامع تلمسان** الذى أقيم فى عصر المرابطين ، كما انها تشبه ايضا كوابيل أخرى كانت تزين قاعة قصبة مالقة حفرت عليها توريقات ذات براعم نباتية ولفائف من التوريق على أرضية بها وريدات تمهد هى ونظائرها فى غرناطة لبعض كوابيل خشبية متأخرة **فى كنيس سانتاماريا لابلانكا بطليطلة (٩٥) .**

وأروع ما تخلف من الاسقف الخشبية الاندلسية أسقف قاعات قصور الحمراء وجنة العريف ودور غرناطة وابنيتها العامة ، كسقف المدرسة ، ومعظم هذه الاسقف على شكل هرم **ناقص تزدان بالزخارف الهندسية الرائعة الملونة**، تمثل اشكالا نجمية بعضها محفور فى الخشب تتشعع منها الخطوط وتتقاطع ، فتتكرر النجوم **فى شكل يجعل من هذه الاسقف متاحف غنية** بالزخارف التى تروق العين ببديع تكوينها وروعة تخطيطها ، ويحيط بهذه الاسقف من ادناها أزر خشبية عليها توريقات ملونة أو مزينة بتوريقات دقيقة . وأروع ما يتعلق بالاسقف الخشبية الفرناطية تتمثل فى الظلل او البرطلات التى تعلو الابواب ، وتتكىء على كوابيل خشبية تندمج فى الجدران ، وكانت هذه الظلل تكسى عادة بتوريقات **وكتابات نسخية وكوفية (٩٦) .**

• • •

---

(٩٣) F. Hernandez, op. cit. p. 220

(٩٤) سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ص ٣٨٤ .

(٩٥) جومث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ص ٣١٢ .

(٩٦) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 186—599.

(٢) القبـاب :

ا ـ قباب قرطبة ذات الضلوع واهميتها :

من المعروف أن الخليفة الحـكم المستنصرادخل عنصر القباب الى المسجد الجامع بقرطبة؛ فلقد توج زيادته فى المسجد الجامع بقرطبة سنة٣٥٤ هـ باربع قباب توزعت على البلاط الاوسط المؤدى الى المحراب والأسكوب الموازى لجـدارالقبلة فى الزيادة المذكورة : واول هذه القبـاب : القبة المخرمة الكبرى القائمة على مدخل البلاطالاوسط من الزيادة ، وثانيها القبة التى تتقـدم جوفة المحراب ، ثم القبتان اللتان تكتنفانهاشرقاوغربا وتصنعان معها غطاء المقصورة الخلافيـة ، وتتميز هذه القباب بالاضافة الى ما احدثته منتناسق وايقـاع وتوازن فى بلاط المحـراب بأن « ظهورها مؤلله ، وبطونها مهللة » على حد قول**ابن صاحب الصلاة الولبنى (٩٧) فهى من ظاهرها** مدببة الشكل اذ يعلو عنقها المثمن سطح مدببمن ثمانية اوجه بدلا من الشكل المنشورى العادى اما بواطنها فتتألف من ضلوع بارزة تتخذ اشكالعقود منفوخة اشبه ماتكون بالأهلة تتقاطع فيمـا بينها ، وقد يكون المقصود بهللة انها مشرقة بماتحتويه من اشكال نجمية وقواقع زخرفيةمذهبة وتوريقات وكتابات ، وان كنت أميل الى الأخـذبالمعنى الأول . والواقع ان قباب قرطبة تختلف كل الاختـلاف عن القبـاب المعروفة حتى ذلكالوقت فى الشرق وفى الغرب على السواء ، وكلها لا تخرج عن النوع نصف الكـروى القـائم علىمقربصات مثلثة . او مقوسة فى الاركان أو النوع القائم على خوذات مفصصة . اما قباب قرطبـةفقوامها عقود بارزة نصف دائرية من حجر منجور تتقاطع فيما بينها قرب منابتها تاركة فى وسـطهافراغا مثمن الشكل فى القباب الثلاثة المتجاورة ، بمقصورة المحراب، ومربع الشكل فى القبةالمخرمةالكبرى ، تشغله قبيبة مفصصـة ، ويغـطى الفراغات الواقعة ما بين الضلوع المتقاطعة اوالمتخلفة من التقاطع كسوات حجرية تختلف فى مستوياتها ، وتطبق فى الفـراغات المـذكورة فىالقباب الأربع جميعا قبيبات دقيقة ، وقواقع ، ومحارات مفرغة ومضلعة ، وزخارف نباتية بارزةواشكال نجمية ، وصور مصفرة لقبيبات دقيقة قائمة على الضلوع ، باستثناء قبة المحراب التىكسيت فراغاتها بزخارف مذهبة من الفسيفساء.

وتتحول القاعدة المربعة فى القباب الثـلاثبمقصورة المحراب الى طابق مثمن عن طـريق جوفات مقوسة معقودة تشغل الأركان الأربعـةللقاعدة ، وتنبت من حدائر العقود الثمانية التى تشغل عنق كل منالقبتين المجاورتين لقبةالمحرابضلعان بارزان قطاعهما مستطيل الشكل ،يقومان على عمود واحد ـ وعلىعمودين فىقبة المحراب ـ وتتقاطع هذه العقود البارزة فيما بينها مؤلفـة فراغا مثمنا ترتكز عليه قبة مضلعة او مفصصة.اما قبة المحراب فتغطيها كسوة من الفسيفساء المذهبة تقـوم زخارفهـا على التوريقات أو علىالعناصر الهندسية الشطرنجية التى تملأ فصوص

---

(٩٧) المقرى ، ج ٢ ص ٨٩ ، ٩٢

القبة المركزية ، وتفمر الضلوع ومابينها . امـاالقبة المخرمة الكبرى فتقوم على قاعدة مستطيلة الشكل ، ويتخلف من تقاطع الضلوع مربع مركزى تتوسطه قبة مضلعة .

ويهمنا من هـذه القباب ضـلوعها البارزةالمتقاطعة فيما بينها والتى تؤلف الهيكل الرئيسى للقبة . وقد بحث مؤرخو الفن فى أصل القبواتذات الضلوع المتقاطعة ، ولكنهم لم يهتدوا الى مثل واحد أقدم فى تاريخه من أمثلة قباب جامع قرطبة ، غير أن بعضهم توصل الى أمثلة متأخرة يرجع تاريخها الى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى العراق وايران ، وكلها من الآجر ، امـا **المثل الحجرى الوحيد للقباب القائمة على الضلوع** المتقاطعة و المتشابكة فى قرطبة فيتمثل فى كنيسة اشبط الواقعة شمالى أرمينيا ، وقد أقيمت فيمايقرب من سنة ١١٨٠ م وهو تاريخ متأخر كثـيرا عن تاريخ انشاء قباب قرطبة . وهناك عدد من الباحثين يرجعون أصل قباب قرطبة الى القباب ذات الضلوع بجامع أصفهان ، ولكن هذهالقبواتترجع الى القرن الحادى عشر ومـن ثم ، فهى **أحدث من قباب قرطبة (٩٨) .**

وعلى هذا النحو تعتبر قباب قرطبة اقدمامثلة القباب ذات الضـلوع المتقـاطعة ، والى مهندس الحكم المستنصر يرجع الفضل بلا شك فى ابتكار هذا النوع من القباب الذى أحدثظهوره ثورة هندسية كبرى فى العالم الوسيط ، فمـن قرطبة انتشر استخدام هذا النوع من القبـاب والقبوات فى المساجد الجامعة فى المغرب والاندلس فى عصر الطوائف وعصر دولتى المرابطين والموحدين ، كما انتشر أيضا فى كنائس اسـبانيا المسـيحيةالمستعربة أو ذات الطراز الرومانسكي . ولكنه **افتقد سماته المعمارية الاصيلة فى المساجد الى** حد طفت معه السمات الزخرفيـة الجماليـة فوصل فى جامـع تلمسان وفى رباط تازي الـى الاسراف الزخرفي ، واختلطت الضلوع الزخرفية البارزة بالمقربصات اختـلاطا مذهلا فى قبتـي الاختين وبني سراج بقصر الحمراء .

أما فى العمارة المسيحية فقد سرت فكرةالضلوع المتقاطعة فى اسبانيا المسيحية فطفت على نظام التقبيب المصلب فى المزان بقشتالة ، وقبوةمصلى توريس دل ريو بنا فارة ، وقبوة كنيسة **سانت كروا بأولورون ، وقبوة مستشفى سان ليز** المعروف بمستشفى الرحمـة فى منطقـة **البرانس بجنوبي فرنسا (٩٩) ولكنها ترجع الى نهاية القرن الثاني عشر . كما ظهرت فى قبوات** أخرى اسبانية مماثلة منها قبوة مقصورة طالابيرابشلمنقة ، **وهي قبوة تذكرنا بقبوة صومعة جامع** الكبية بمراكش ، او قبـوة بهو الاعـلام بقصر اشبيلية (١٠٠) .

---

(٩٨) Torres Balbas, arte Hispano musulman pp. 521-524.

(٩٩) Lambert, l'Hôpital Saint-Blaise et son eglise hispano mauresque, R. al-Andalus, 1940, pp. 179-187 — Emile Male, Art et artistes du moyen-age, Paris 1947, p. 73.

(١٠٠) Jose Camon Aznar, la boveda gotico - morisca de la capilla de Talavera en la catedral vieja de Salamanca, al-Andalus, Vol. V, fasc. I, 1940, p. 176.

ومما لا شك فيه ان القباب القرطبية كان لها اعظم الاثر فى الهام الفنانين الفرنسيين فى منطقة ايل دى فرانس الى الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القبوت القوطية (١٠١) . عندما وفقوا الى فكرة دمج الضلوع القرطبية فى القبوة المتعارضة عن طريق دعم الاجزاء البارزة من هذه القبوة الاخيرة بادخال نظام الضلوع المتقاطعة الصلبة . ولم يلبث هذا الابتكار أن طبق فى تغطية مسطحات واسعة بالكنائس عوضا عن مواضع ضيقة محصورة .

• • •

ب ـ انتشار فن التقبيب على اساس الضلوع البارزة المتقاطعة فى الاندلس : انتشر استخدام القبوات ذات الضلوع المتقاطعة كحلية زخرفية فى سائر منشآت الاندلس الدينية والمدنية على السواء ، ففي عصر الطوائف شاع هذا النوع من القبوات ، واتخذه البناة فى مسجد باب المردوم بطليطلة ومسجد الدباغين فى نفس المدينة ، كما استخدم فى تقبيب مصلى الجعفرية بسرقسطة وفى بعض قاعات بقصر اشبيلية . فنظام التقبيب بمسجد الباب المردوم بطليطلة يقوم على تقاطع الضلوع فى صور مختلفة ، فعلى كل اسطوان من اساطين بيت الصلاة التسع تقوم قبوة الوسطى منها أكثرها ارتفاعا ، ومن القبوات التسع ما يمثل شكلا رباعيا منحرفا ذا أقطار بحيث يبدو كأنه قبوتان من الطراز القوطي ، احداهما داخل الاخرى ، ومنها ما يبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة الكبرى ، بجامع قرطبة وكل هذه القبوات تعرض تطورا رائعا لقبات جامع قرطبة ، والفارق بينهما أن قبوات طليطلة تعرض اتجاها يبرز فيه الميل الى الزخرفة وفن الهندسة اكثر من ابراز الفكرة المعمارية ، فلم يفكر بناة مسجد باب المردوم فيما يمكن ان تؤدي اليه الفكرة المعمارية الكامنة فى قباب قرطبة من ثورة هائلة فى فن العمارة على النحو الذي افاد منه الفنانون الفرنسيون .

وازداد الميل الزخرفي او الهندسي فى فكرة التقبيب بصورة واضحة فى قبوة مسجد الدباغين بطليطلة التي تتوسط الاساطين التسع للمسجد ، وهذه القبوة تنقسم بدورها الى تسعة اقسام عن طريق أربعة ضلوع تتعاقد فيما بينها اثنين اثنين ، بحيث يشغل الفراغ الناتج من التقاطع فى كل قسم منها ضلعان صغيران متقاطعان .

وتشير الآثار الباقية من قاعة الرخام أو مجلس الذهب بقصر الجعفرية بسرقسطة الى انه كانت مزودة بقبة قائمة على الضلوع المتقاطعة ، فقد بقيت قطع من عقود كانت تتقاطع فى القبة تردان بمنطقة من التوريقات تنحصر (١٠٢) بين حزامين من اللفائف التي تشبه نظام الوسائد ،

---

(١٠١) Torres Balbas, la progenie hispanomusulmana de las primeras bovedas nervadas francesas, alAndalus, 1935, pp. 398-410.
Lambert, les voûtes nervees hispano musulmanes du XIe sie de et leur influence possible sur l'art cheretien, Hesperis, 1928.

(١٠٢) جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ، ص ٢٧٧ .

وهذه البقايا فى حد ذاتها يكفي ان تعبر لنا عن مدى التحول الى الزخرفة الذي ادى اليه تطور استخدام القبوات ذات الضلوع بقرطبة (١٠٣) .

وتابع المرابطون استخدام القبوات ذات الضلوع المتقاطعة لاغراض زخرفية ، اذ فقدت هذه القبوات قيمتها المعمارية واصبحت مجرد حليات تفنن البناءون فى تشكيلها وتزيينها بكل انواع الترقيش والتوشيح والتوريق حتى بدت في ثوب قشيب يستثير الاعجاب ويحدث فى النفس نشوة جمالية تفوق كل حد . ولقد تبقت لنا فى احدى غرف الدار رقم (٣) ببهو الاعلام غير بعيد من بهو الجص قبوة قائمة على الضلوع المتقاطعة تشبه قبوة المسجد الجامع بتلمسان من حيث التخطيط ، وتكون الضلوع هيكلا من اثني عشر ضلعا لعلها من قوالب الآجر موضوعة على جوانبها ، وتغطي هذه الضلوع حيزا مربع الشكل مشطوفا فى أركانه الاربعة ، ويتخلف من تقاطع هذه الضلوع شكل متعدد الاضلاع من اثنى عشر ضلعا تملؤه قبيبة من المقربصات (١٠٤) فى وسطها نجمة مسدسة الرؤوس . وشكل القبوة يقربها من قبوة جامع تلمسان الذي يرجع تاريخ انشائه الى عصر المرابطين ، ولهذا فمن المعتقد انها ترجع الى نفس العهد (١٠٥) ، فمن المعروف ان المرابطين ابقوا – بعد دخولهم اشبيلية – على مجموعة القصر المبارك وقصر الامارة ليتخذها ولاتهم مقرا اداريا ومركز اللحكم . وعندما شرع المرابطون فى توسعة مجموعة القصر بمزيد من المجالس وتابعهم فى ذلك الموحدون من بعدهم أجروا ذلك بعرض الشريط الغربي من النطاق الرباعي الشكل الذي يتالف من دار الامارة او القصر القديم والقطاع الذي عرف فيما بعد باسم قاعة رئيس النظام Cuarto del Maestro بالاضافة الى القصر الموسوم بقصر الجص الذي كان يشكل قسما من القصبة الداخلية التي كان يوسف قد اقامها فى سنة ٥٦٧ هـ .

ومن المعتقد ان قباب جامع اشبيلية الكبير الثلاث كانت من المقربصات المختطة بالضلوع البارزة على النحو الذي نشاهده فى مصلى سان فرناندو وبجامع قرطبة كما يرجح الاستاذ توريس بلباس (١٠٦) .

• • •

---

(١٠٣) لا نستبعد ان تكون القبة التي اقامها المامون بن ذي النون فى سنة ٥٥٤ هـ بطليطلة وسط البحيرة من النوع الذي نشاهده فى جامع تلمسان أي انها قبة الضلع البارزة ، غطيت بالزجاج الملون .

(١٠٤) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 31.

(١٠٥) وفى ذلك نخالف رأي الاستاذ توريس بلباس الذي يرجعها الى عصر الموحدين ، (المرجع السابق ، نفس الصفحة) .

(١٠٦) Torres Balbas, la mesquita — Torres Balbas, op. cit., p. 168 de Cordaba y las ruinas Madinat al-Zahra, p. 106.

جـ ـ ظهور القبوات المقربصة : « المقرنصة »

ظهرت القبوات المقربصة مع الضلوع المتقاطعة لاول مرة فى جامع تلمسان وقبوة بهو الاعلام باشبيلية من عصر المرابطين ، ثم ظهرت بعد ذلك مستقلة دون أن يحاصرها تقاطع الضلوع ، ولكن متداخلة مع التخطيط العام للضلوع المتقاطعة ومنصهرة فيه ، ويتمثل ذلك بصورة واضحة فى المغرب فى قباب جامع الكتبية بمراكش وفى قبة جامع القرويين بفاس وفى قباب جامع تينمال . اما فى الاندلس فلم يتبق الا مثل واحد من عصر الموحدين هو قبوة الباب الشرقي **بجامع الموحدين باشبيلية** (١٠٧) . **ومن الغريب ان** ينتقل هذا الاسلوب الزخرفي الموحدي فى نظام **التقبيب القشتالي فى نفس العصر ، فنراه ممثلا فى مصلى لاس كلاوستریاس بدير لاس اويلجاس** ببلدة برغش ، وفيها يظهر بوضوح اندماج الضلوع بالمقربصات فى تقاطع مصلب يشغله فى المركز قبيبة مقربصة .

ثم شاع استخدام المقربصات لكسوة بطون القباب فى الاندلس فى عصر بني الاحمر ، وطغى على الضلوع البارزة فتلاشت تماما ، فى حين سادت المقربصات فى جميع قبوات قصر الحمراء، فنشهدها فى مجتبات بهو السباع ، وفى قاعتي الاختين وبني سراج وفى قاعة الملوك Sala de les Reyes بقصر السباع ، كما نراها تفمر الحنيات المقوسة بأركان القباب وتغطي بواطن العقود ، ونشاهد المقربصات أيضا خارج قصور الحمراء فى القبوة التي تغطي المدخل الى فندق الفحم بغرناطة .

ومع انتشار المقربصات فى زخرفة قبوات العمائر النصرية ، وصل الينا انموذج لقبوة ذات ضلوع متقاطعة بارزة بروزا خفيفا تعتبر الانموذج الاخير فى الاندلس لهذا النوع من القبوات بعد ان فقد تماما صفته المعمارية، واصبح مجرد زخرفة اقرب ما تكون الى الزخارف النجمية التي نشاهدها على الجص والحجر ولكنها ذكرى باهتة لقباب بقرطبة ، تلك هي قبوة رابطة غرناطة التي تحولت بعد سقوطها الى كنيسة سان سباستيان ، وتخطيط القبة مربع الشكل قد شطنت اركانه وخرج من المثمن ستة عشر ضلعا بارزا طفيفا اشبه ما يكون بالخطوط المسطحة ، تتقاطع فيما بينها قرب مركز القبة تاركة فى الوسط شكلا نجميا من ستة عشر راسا (١٠٨) .

• • •

---

(١٠٧) السيد عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الاندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة عدد ١٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٩٩

(١٠٨) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 146

رابعا : المآذن والابراج

(١) مآذن العصر الاموي : اتخذت مآذنالمغرب والاندلس الشكل المربع ، الذي شاع فى الصوامع الكنسية فى الشام قبل الفتوحاتالاسلامية ، ثم اقتبسه المسلمون لبناء مآذنهم ، وقدر له أن يصبح الطابع المحلي لمآذن المغربوالاندلس (١٠٩) . **وأقدم المآذن الاندلسية التي** يمكن ان نتصورها مئذنة الامير هشام بنعبد الرحمن الداخل بالمسجد الجامع بقرطبة . وكانت مقامه فى محور الجامع بالجهة الشماليةمن الصحن ، **وقد استطاع الاستاذ فيلث** هرناندث الاهتداء الى اساسها، ويثبت من دراسةأسسها **انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع** منها ستة أمتار ، اما ارتفاعها فتقدر المصادرالعربية بأربعين ذراعا اي ما يعادل (١٩٫٢) مترا تقريبا على اساس (٤٨) سم للذراع الواحد .وكان جدارها القبلي يرتكز على الجدار الشمالي للجامع ويبعد بنحو (٢٣٫٩٠) مترا من الجدارالحالي (١١٠) . **وكان يتوسط المئذنة من الداخل** نواة مربعة الشكل يدور بينها وبين جدرانهاالخارجيةدرج لولبي على نفس نظام كل من برجي سان خوان وسانتياجو بقرطبة ، وكانا فى الاصلمئذنتين لجامعين ، ومئذنة جامع ابن عوبس باشبيلية المعروفة اليوم ببرج كنيسة سان سلفادور . ويعتقد الاستاذ توريس بلباس ان الاصل الاسباني لهذا النوع من المآذن يرجع الى فترةتسبق الفتح الاسلامي ، ويتمثل فى الدرج **اللولبي بمعمودية جابيا بغرناطة** (١١١) .

ثم تهدمت هذه المئذنة بعد ان وسععبد الرحمن الناصر صحن الجامع من جهة الشمال ومده مسافة تبلغ نحو (٢٤) مترا ،وانشأ عوضا عنها صومعة بحذاء الجدار الشمالي الجديد للجامع ، بحيث لا تبرز نحو الخارج (١١٢) ، **وتم بناؤها فى سنة ٣٤٠ هـ واستغرق** بناؤها ١٣ شهرا . والمئذنة الجديدة مربعةالقاعدة **يبلغ طول كل جانب منها ١٨ ذراعا** (اي ما يعادل ٨٫٤٦ مترا) وكان ارتفاعها الىموضع **الاذان يبلغ ٥٤ ذراعا** (١١٣) **(أى ما يقارب ٢٣٫٥٠ مترا) بينما يبلغ اعلى القبة المفتحة التييستدير بها المؤذن ٧٣ ذراعا** (١١٤) **(أي ما يقرب من ٣٣٫٨٤ مترا) . واستعمل فى بناء الصومعةالناصرية كتل حجرية ضخام منجدة ومصقولة**

---

(١٠٩) السيد عبد العزيز سالم ، المئذنة المصرية وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ .

(١١٠) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ص ٣٢٣ ، ٣٧٣

(١١١) Torres Balbas, la primitive mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, Vol. XI, 1946, p. 436-438..

(١١٢) قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس ، ج ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦

(١١٣) ابن غالب الاندلسي ، ص ٢٩ ـ المقرى ، ج ٢ ص ٨٥ ، ٩٨ ، ٩٩

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٢٩ ـ المقرى ، ج ٢ ص ٨٥ ـ الحميرى ، ص ١٥٧ .

وبطنت واجهاتها الاربع بحجر الكذان اللكي (١١٥) ، وهو حجر جيرى سهل النخر والتآكل (١١٦) **اختصت به مدينة قرطبة . وينقسم قلب المئذنةالى قسمين مستقلين كل منهما مستطيل الشكل، يفصلبينهما جدار يمتد من الشمال الى الجنوب،ولكل قسم درجقائم بذاته عدد درجاته ١٠٧ (١١٧) يدور حول كتلة من البناء مستطيلة الشكل.** وعلىهذا النحو تعتبر مئذنة الناصر ازدواجا لمئذنة هشام . ولكل من القسمين باب مستقل احدهمالدخول المؤذنين والآخر لخروجهم منه بعد نزولهم فى الدرج الثاني من اعلى المئذنة ، ويتحد الدرجانبأعلى السطح الذي تعلوه قبة . وقد وصف الادريسي درجي المئذنة بقوله : « اذا افترقالصاعدان اسفل الصومعة لم يجتمعا الا اذا وصلا الاعلى منها » (١١٨) ، **وفى هذين الدرجين**يقول ابن عذاري : « وقد كانت الاولى (اي مئذنة هشام) ذات مطلع واحد ، فصيّر لهذه مطلعين،وفصل بينهما بالبناء ، فلا يلتقي الراقون فيها الا بأعلاها » (١١٩) **وكان يعلو بسطات الدرج**قبوات متقاطعة لم تبق منها اليوم سوى واحدة نصف اسطوانية متجاوزة تتعاقد مع محورالدرج ويقطعها من وسطها عرضا عقد منفوخ ، وكانت الجدران الخارجية للمئذنة مزينة بنوافذمزدوجة او توامية عقودها منفوخة متجاوزة تتوزع على ثلاثة طوابقبالنسبة لواجهتيها القبليةوالشمالية ، ونوافذ ثلاثية عقودها منفوخة ، كذلك تتوزع على طابقين فى الواجهتين الشرقيةوالغربية . وعقود هذه النوافذ متجاوزة للغاية بحيث تكاد تغلق من ادنى ،وتسنيجها كامل حتىمنابت العقود ، والسنجاتمطولة : واحدة بارزة بيضاء واخرى غائرة حمراء على التناوب ،ويحيط بها من اعلى مجموعة من الفصوص الصغيرة التي تتعاقب مع اخرى كبيرة حولالسنجات وتنتهي مجموعة حنايا العقد المزدوج **او الثلاثي من اعلى بافريز بارز يدور مع الحنايا** ،وتطوق المجموعة كلها طرة مستطيلة الشكل . وتتكىء العقود فى هذه النوافذ على عمد صغيرةتيجانها كورنثية ومركبة . وما زالت المئذنة تحفظ اليوم فى جزئها الاسلامي بنافذة ثلاثيةالعقد . وكان جدار المئذنة ينتهي من اعلى بافريز من العقود الصماء (تسعة على كل وجه) قائمةعلى عمد صغيرة ، ويمتد هذا الافريز حول الاوجه الاربعة للمئذنة ، وقد اصبح ذلكتقليدا متبعا **فى جميع مآذن المغرب والاندلس بعد ذلك .**

وكان يعلو هذا الطابق من المئذنة بيتللمؤذنين او برج اقل ارتفاعا من الطابق الادنى الذي وصفناه كان يقضي فيه كل ليلة مؤذنانللاذان فى العشاء والفجر ، وكان لهذا البيت

---

(١١٥) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ ـ ١٢

(١١٦) Dozy, supplément aux dictionnaires arabes, Leiden 1881

(١١٧) ابن غالب ، ص ٢٩

(١١٨) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١٠

(١١٩) ابن عذارى ، ط ، ليفي بروفنسال وكولان ،ج ٢ ص ٢٢٩

اربعة ابواب مغلقة ، وتتوجه قبة مخرمة وصفهاالمؤرخون ، براسها ثلاث تفاحات ، واحدة من ذهب وثنتان من فضة تفصل بينهما أوراقسوسنية (١٢٠) ، وان كان ابن عذارى يجعلها ثنتين من الذهب وواحدة من الفضة قد نصبتجميعا فى زج أو سفود بارز (١٢١) ، اما ابن سعيد فيجعلها ثنتين من الذهب الابريز بينهما ثالثة منالفضة الاكسير ثم رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز (١٢٢) . وقد نهبت هذه التفاحاتالذهبية والفضية فى الفتنة الثانية فى سنة ٥٤٠ هـ .

ولقد تحولت مئذنة جامع قرطبة الى برجللنواقيس سنة ١٢٣٦ دون ان تتعرض لاي تغيير جوهري من الناحية المعمارية ، ولكنالنواقيس عجلت بتصدع المئذنة . ففي سنة ١٥٨٩ تصدعت المئذنة بسبب زلزال عنيفتشققبسببه بيت المؤذنينوقسم كبير من الطابق الادنى ، وهدد ذلك التشقق المئذنة كلهابالسقوط ، واستلزم الامر ترميما شاملا لها ، ولكن عملية الترميم لم يكن من الممكن ان تتم دونتدعيم القسم الادنى منها حتى تتحمل قيام طابق علوي جديد ، وكان لابد من حشو المئذنة منالداخل بالبناء ثم تغليفها كلا بكسوة من الحجر من نفس طراز كسوة البرج العلوي من مئذنةجامع اشبيلية فاسندت مهمة التغليف الى المهندس الكبير هرنان روبث وذلك فيما بينعامي ١٥٩٣ ـ ١٦٥٣ م اي طوال ستين سنة ، وبذلك اختفى القسم الاسلامي المحفوظ منالمئذنة من الداخل والخارج . ولقد اتاحت الابحاث الاثرية التي قام بها المهندس الاثريفيلث هرناندث الكشف عن جزء كبير من المئذنة الاسلامية ، وعلى هذا الاساس أمكن اعادةتخطيط المئذنة على النظام الاصلي ، وحفظ لنا **جزء كبير من المئذنة يصل ارتفاعه فى الجدار** الخارجي منها الى ٢٢ مترا ، بينما حفظ نحو ٢٦ مترا من النواتين الداخليتين .

والى جانب مئذنة المسجد الجامع المذكورةثبتت بقرطبة لحسن الحظ ثلاثة ابراج لكنائس كانت فى الأصل مآذن لمساجد : أولها مئذنةمسجدهدمه القشتاليون واقاموا على اساسه كنيسة تعرف اليوم بكنيسة دير سانتا كلارا . وهيمئذنةمربعة القاعدة طول كل جانب منها ٤٫٧٠ مترا ويتوسطها من الداخل نواة مركزية مربعة الشكلكذلك ، أشبه بالدعامة ، يدور حولها فيما بينها وبين جدار المئذنة درج . والبناءمن الحجريتناوبفى صفوفه كتلة موضوعة طولا وكتلتان او ثلاث من جوانبها ، واوجه المئذنة ملساء ، تنفتح فيهابعض النوافذ الضيقة لادخال الضوء ، وتنتهى من اعلى بشرفات . ويستدل الاستاذ توريس‌بلباس من طريقة البناء على ان تاريخ هذه المئذنة

---

(١٢٠) الادريسي ، ص ١٢

(١٢١) ابن عذارى ، ط . ليفي بروفنسال وكولان ، ص ٢٢٨

(١٢٢) المقرى ، ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩

يرجع الى أواخر القرن العاشر الميلادى أو الحادى عشر (١٢٣) وان كانت تشبه كثيرا من حيث طريقة البناء ومن حيث النواة المربعة مئذنة جامع القرويين بفاس التى تم تشييدها فى ربيع الآخر سنة ٣٤٥ هـ على يدى الامير أحمد بن أبى بكر الزناتى عامل عبد الرحمن الناصر على فاس (١٢٤). ومع ذلك فان حويث مورينو يقارنها ببرج سان خوسيه الذى كان يوما ما مئذنة لجامع المرابطين بقصبة غرناطة ويرجع تاريخها الى أواخر القرن العاشر (١٢٥) . وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول تاريخ بناء هذه المئذنة ، فمن المعتقد انها تنتمى الى فترة الازدهار العمرانى فى قرطبة زمن الخلافة ، فهى الفترة التى اكتظت فيها قرطبة بالمساجد الصغيرة الى حد أن عددها بلغ نحو ١٨٣٦ مسجدا وفقا لما ذكره ابن غالب نقلا عن ابن حيان أو ٣٠٠٠ مسجد وفقا لرواية ابن عذارى (١٢٦) . وايا ما كان تاريخ بناء المئذنة المذكورة فمن المرجح انه كان يعلو برجها الادنى الذى وصل الينا برج مربع القاعدة أصغر حجما ينتهى من أعلى بقبة تتوجها تفاحات مركبة فى سفود بارز على غرار تفاحات مئذنة جامع قرطبة .

والمئذنة الثانية المعروفة اليوم ببرج كنيسة سان خوان أقدم عهدا من برج سانتا كلارا ، ويمكننا أن نرجع تاريخ بنائها ـ من واقع طريقة البناء ونوع التاج الوحيد المتبقى بها فى الواجهة القبلية ، وهو تاج عمود ينتمى الى مجموعة تيجان الاعمدة الاربعة التى يقوم عليها عقد المحراب بجامع قرطبة المنسوبة الى الامير عبد الرحمن الاوسط الى عهد هذا الامير . والمئذنة بناء متواضع مربع الشكل يبلغ طول كل ضلع من اضلاعه نحو ٧ر٣ مترا ويصل ارتفاعه من مستوى سطح الارض الى السطح الذى كان يرتفع عليه بيت المؤذنين أو القبة العليا ثمانية أمتار . وتخطيط المئذنة من الداخل مستدير ، اذ تتوسطها نواة مركزية أسطوانية الشكل يدور حولها درج لولبى . أما من الخارج فجدرانها من صفوف حجرية من نوع ردىء تآكلت طبقته السطحية بفعل الرطوبة . وتمتاز المئذنة بأن كل وجه من أوجهها الاربعة يزدان بفتحة رشيقة مزدوجة تمثل عقدين توأمين على هيئة حدوة الفرس ، أى تجاوزت نصف الدائرة ، اقتصرت سنجاتها على ثلثها الاعلى ، والسنجات فى هذه العقود ثلاث : سنجة وسطى من الحجر تؤلف مفتاح العقد ، وسنجتان تتألف كل منهما من ثلاثة قوالب من الآجر الأحمر تطوقان السنجة الوسطى من اليمين واليسار ، ويستند كل عقدين توأمين فى الوسط على عمود مركزى فى كل من الواجهات الاربع ، ولكن لم يتبق من هذه الاعمدة الا عمود واحد رشيد له تاج من الطراز الكورنثى هو الذى أشرنا اليه آنفا . ونلاحظ أن الفتحات المعقودة بأوجه المئذنة كلها صماء مغلقة ماعدا فتحة الواجهة

---

(١٢٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, pp. 605-606

(١٢٤) الجزنائي ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ٣٧ ، ٣٨

(١٢٥) جومث مورينو ، الفن الاسلامي فى اسبانيا ، ص ٨٥

(١٢٦) قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس ج ١ ص ١٨٤ .

القبلية فهي نافذة (١٢٧) . ولا يحيط بالفتحات المعقودة اليوم طرز او تربيعات مستطيلة الشكل، ولعله كان يطوقها فى العصر الاسلامى طرز بارزة على النحو الذى نراه فى جميع الآثار القرطبية ، تم تساقطت بمرور الزمن أو بفعل عوامل الجو وتأثير الرطوبة . وكان يعلو العقود التوامية فى كل من الواجهتين الشماليتين بائكة صغيرة ـ اى صف من العقود المتصلة ـ بارزة تتالف من سبعة عقود صغيرة على شكل حدوة الفرس تقوم على ثمانية اعمدة من الرخام ، وللأسف لم يتبق فى الوقت الحاضر من هاتين البائكتين الا آثار تدل على انها كانت تتوج بدن المئذنة .

وتصميم هذه المئذنة يشبه الى حد كبير تصميم مئذنة اخرى اصبحت اليوم برج النواقيس لكنيسة سانتياجو بقرطبة ، وبرج كنيسة سان سلفادور باشبيلية التى كانت فيما مضى مسجدا يعرف بجامع عمر بن عدبس . وتتميز مئذنة سانتياجو بقرطبة بقاعدتها المربعة من الخارج ونواتها الاسطوانية فى الداخل وبالدرج اللولبى الذى يدور بينهما (١٢٨) وهي اذ تتشابه مع برج سان خوان وبرج سان سلفادور (١٢٩) يجعلها تندرج فى نفس تاريخ البرج الأخير الذى كان مئذنة لجامع ابن عدبس الذى اقيم فى اشبيلية سنة ٢١٤ هـ فى امارة عبد الرحمن الاوسط .

والى نفس المجموعة من المآذن يمكننا ان ننسب مئذنة غرناطية كانت تنتمى الى جامع المرابطين بالقصبة القديمة اصبحت اليوم برج الابراشية سان خوسيه . والمئذنة المذكورة مربعة الشكل طول ضلعها ٣٫٨٥ مترا (١٣٠) .

• • •

ب ـ **مآذن عصر الموحدين** : لم يتبق من عصر الطوائف وعصر المرابطين فى الاندلس آثار لمآذن فقد تعرضت جميعا للضياع ، ولكن تبقى من عصر الموحدين مئذنتان : الأولى مئذنة مسجد كواتر وآبيتان باشبيلية ، والثانية مئذنة المسجد الجامع الموحدى باشبيلية .

اما منار مسجد كواتر وآبيتان فيقع الى شمال المسجد ويقوم بمعزل عنه . والمئذنة المذكورة مبنية بالآجر ، وهي مربعة الشكل طول كل جانب منها ٣٫٢٥ مترا ويتوسطها بناء مربع الشكل يدور بينه وبين الجدار الخارجى درج تغطيه قبوات صغيرة نصف اسطوانية متدرجة

---

(١٢٧) جومث مورينو ، ص Torres Balbas, Arte Hispano musulman, o. 402

(١٢٨) Torres Balbas, op. cit. 402-403.

(١٢٩) المساجد والقصور فى الاندلس ، ص ٤٨

(١٣٠) جومث مورينو ، ص ٢٠٤ .

فى الارتفاع . وتزدان جدرانها من الخارج بثلاث طاقات مستطيلة ـ فى كل وجه ـ الواحدة فوق الاخرى ، ويزين الطاقتين السفليين عقدان توأمان متجاوزان او خماسى الفصوص صماوين ، يطوقان منفذين ضيقين ينفذ من خلالهما الضوء شحيحا الى الدرج ، وقد ترتب على ذلك أن وضع الطاقات يختلف فى كل وجه بالمئذنة عن الآخر ويتوج المئذنة من اعلى ازاران بارزان متباعدان (١٣١) .

أما المئذنة الثانية فهى صومعة المسجد الجامع باشبيلية التى شرع أبو يعقوب يوسف الموحدى فى بنائها على يدى واليه ابى داود يلولبن جلداسن ، وتعطل بناؤها بموتهما سنة ٥٨٠هـ الا أن خليفته ابا يوسف يعقوب المنصور ماكاد يظفر بالبيعة حتى امر والى اشبيلية بالاشراف على اتمام مشروع ابيه واكمال بناء مئذنة تجاوز فى ارتفاعها مئذنة قرطبة التى كانت تعد وقتئذ أعظم مئذنة فى المغرب والأندلس . واسندت اعمال البناء الى عريف العرفاء احمد بن باسة ، ولكن المنية عاجلته ، فخلفه على أعمال البناء على الغمارى الذى ثابر على بناء الصومعة ، فتم بنيانها بعد انتصار أبى يوسف يعقوب على جيوش قشتالة فى موقعة الاراك فى رجب سنة ٥٩١ هـ (يوليو ١١٩٥ م) ، فبعد أن عاد المنصور الى اشبيلية ظافرا دخل اشبيلية فى ٢٧ من شعبان فأمر باكمال بناء الجامع الكبير والصومعة ، وارتفعت الصومعة فى رشاقة لتشرف على فحص اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف ، ثم اصدر الخليفة امره بصنع التفاحات الأربع المذهبة لتكلل الصومعة ، فرفعت فى حضرته وركبت بالسفود البارز فى اعلى قبة الصومعة ثم ازيحت عنها الاغشية التى كانت تغطيها فى ١٩ ربيع الآخر سنة ٥٩٢ هـ فبهرت ببريقها ولألائها عيون الحاضرين .

وظلت صومعة جامع اشبيلية بجمالها وسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها تثير اعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء الى ان سقطت اشبيلية فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، فتحول المسجد الجامع الى كنيسة سانتا ماريا وتحولت المئذنة الى برج للنواقيس . ومع ذلك فقد ظلت المئذنة فى نفس حالتها التى تركها عليها المسلمون دون ان تصب باى تغيير فى نظام بنائها سوى انها لم تعد تقوم بوظيفتها كمئذنة ، وتحولت الى برج للنواقيس ، ثم فقدت الى الأبد تفافيحها الاربع على اثر زلزال حدث سنة ١٣٥٥م . وفى سنة ١٤٩٤ تهاوى القسم الأعلى من الصومعة على اثر صاعقة ، كما سقط جانب كبير منه على اثر زلزال سنة ١٥٠٤ ، وعندئذ قام المهندس هرنان رويث بتنفيذ مشروعه ببناء برج علوى فى سنة ١٥٥٨ ، فتم بعد عشر سنوات ، ونصب فى اعلاه تمثال من البرنز يرمز للمسيحية صنعه رتولومى موريل سنة ١٥٦٧ بحيث يدور مع الرياح ، يبلغ ارتفاعه اربعة أمتار ، ولذلك اطلق عليه اسم خيرالديو Giraldillo او دوراة الرياح ومنها جاءت تسمية المئذنة بالجيرالدا . منها ٦٩ر٦٥ مترا ارتفاع الجزء الاسلامى منه .

---

(١٣١) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 29.

ويكفى لاظهار رومة هذا الجزء الاسلامى ان يلمس الزائر للجيرالدا بنفسه عمارته الصاعدة فى ارتفاع ، وزخارفه المحفورة فى الآجر كالمخرمات والموزعة فى تعادل واتزان مع رقة وبساطة تنطقان بهذا التفضيل .

كانت الخيرالدا تتألف من طابقين : الاول ـ وهو الجزء الاعظم منها ـ ينتهى بالافريز الافقى الذى تعلوه فتحات النواقيس . والثانى برج صغير الحجم يعلو البرج الادنى فى امتداد نواته الداخلية ، وكانت تعلو هذا الطابق بدوره قبيبة مقر مدة يتوجها سفود ركبت عليه التفاحات الاربع التي تتضاءل احجامها بالتدرج كلما ارتفعت ، فتتناسق تماما مع القبيبة ، وتفصح عن ايقاع وتناسق تؤكده رشاقة المئذنة وسموقها ، وتدعمه اتجاهها الصاعدى الذى يزداد قوة بالتقسيمات الرأسية لزخرفة المعينات . وتتألف هذه المعينات من اربع شبكات فى كل وجه تقوم كل منها على عقدين توأمين وتتوزع على اساس شبكتين سفليين تعلوهما شبكتان أخريان . ومن المعروف ان هذه الشبكات تقوم أساسا على تقاطع امتدادات العقود ، وقد كانت تشبيكات قاعدة قبة المحراب بجامع قرطبة أساس ابتكار هذا النوع من الزخرفة ، ثم تطورت بعد ذلك فى عصر دويلات الطوائف الى نظام التشابكات المختلطة فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات ، الى ان ظهرت فى أوجه الخيرالدا بهذه الصورة الرائعة وقاعدة الصومعة مربع طوله ١٣ر٦٥ مترا بداخله نواة مربعة الشكل طولها ٦ر٢٥ مترا يدور حولها فيما بينها وبين الجدران الخارجية للمئذنة أحدور صاعد (١٣٢) يتألف من ٣٥ مقطعا ، وتعلوه قبوات متعارضة صغيرة متصلة ، خمسة منها فى كل مقطع . ويشغل النواة الداخلية للمئذنة سبع غرف مربعة الشكل الواحدة فوق الاخرى ، الخمسة السفلى مسقوفة بقبوات نصف كروية ، اما القبوتان العلويتان فمتعارضتان ويتراوح ارتفاع كل غرفة مابين ٣٠ر٦ مترا و ٩٠ر٤ مترا . ويفصح البناء الداخلى للمئذنة عن احكام لفن البناء ، ومعرفة دقيقة بأصول العمارة .

وقد لعبت المئذنة موضوع الدراسة دورا هاما فى فنون المغرب والاندلس ، فمنها ظهرت بعد ذلك الزخرفة المحتشدة التى عرفت فى قصور الموحدين ثم فى قصور بنى نصر بغرناطة وبنى مرين بمراكش ، وفى كنائس المدجنين ، كما الهمت زخارفها القائمة على الشبكات المملوءة باشكال المعينات فنانى اسبانيا المسيحية فكرة تزيين ابراج كنائسهم ، بحيث اصبح من العسير على الباحث تمييز البرج المسيحي من المئذنة الاسلامية ومن امثلة هذه الابراج المسيحية المتأثرة فى زخارفها بالجيرالدا برج كنيسة سانتا كاتالينا ، وبرج كنيسة سان ماركوس ، وبرج كنيسة اومينام سانكتورام باشبيلية . كذلك امتدت اشعاعاتها الى طليطلة فتأثرت بزخارفها أبراج

---

(١٣٢) يشبه هذا الاحدور او الطريق الصاعد نظيره فى برج كنيسة سان خوان دى لوس رييس بغرناطة وبرج كنيسة سانتا ماريا دى سان لوكار .

Torres Balbas). (ArsHispaniae, t. IV, p. 297

الكنائس فى هذه البلدة مثل كنيسة سانتياجودل ارابال ، وكذلك الى بلد الوليد فنشاهدها فى واجهة قصر توردئياس ، والى قرمونة حيثنراها واضحة على برج كنيسة سانتياجو .

مآذن غرناطة فى عصر سلاطين بنى الاحمر :بقيت من عصر سلاطين غرناطة مئذنتان : الأولى مئذنة مسجد تحول الى كنيسة سان خوان دىلوس رييس بغرناطة ، والاخرى مئذنة مسجد ببلدة رندة تحول الى كنيسة باسم سانسباستيان . أما مئذنة غرناطة فبرج مربعالشكل بداخله نواة مربعة الشكل كذلك صماء . ويدوربين هذهالنواة الوسطى والجدار الخارجىللمئذنة أحدور صاعد يماثل أحدور الخيرالدا . وتزدانأوجهها الاربعة من الخارج بعقود صماء تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات أقيمت منالآجر ، وتمتد خواصر هذه العقود من رؤوسها فتتقاطع فيما بينها مؤلفة شبكات من المعينـاتيختلف رسمها فى كل وجه عن الآخر ، ويدور بأعلى الشبكات افريزان بارزان أحدهما يعلوالآخر يحصران بينهما شريطا عريضا تكسوهشبكة من أشكال متعددة الضلوع نجمية الشكل ذات ١٦رأسا . ونستدل من نوع التيجان الجصية التى تعلو الاعمدة على ان المئذنة من ابنية القرنالسابعالهجرى .

أما المئذنة الاخرى بمدينة رندة فمقاييسهامتواضعة ، وهي ايضا على شكل مربع ، وتتميز بباب ينفتح فى احد جوانبها يعلوه عبث سنجاتهطويلة تتناوب بارزة وغائرة وكانت تعلوها شبكة من المعينات فى كل وجه ولكنها اختفت (١٣٣) .

• • •

(٢) الابراج الحربية والمدنية :

آ ـ الابراج الحربية : ساد استخدام الأبراجالمربعة فى التحصينات المعمارية حول المدن الأندلسية مثل قرطبة واشبيلية وقلعة جابرومالقة والمرية وغرناطة وغيرها . ويتألف البرج من نصفين : نصف ادنى مصمت ، ونصف علوىتشغله غرفة وينفتح سطحه مع سور المشىوتعلو جدرانه العليا شرفات ، وقد تشغله غرفتانالواحدة فوق الاخرى تخصص عادة للحامية ، وتزود جدران البرج فى العادة بمنافذ للسهامتنفتح فيه ويغطى الغرفة فى معظم الأحيان قبوات نصف كروية . أما البرج المضلع المسدس والمثمنومتعدد الاضلاع ، فلم يكن ابتكارا اسلاميا ، اذ كان معروفا فى العمارة الرومانية والبيزنطية .وقد تاثر المرابطون والموحدون بصفة خاصة بالعمارة البيزنطية ، فشيدوا ابراجا مسدسةالشكل ، كالبرج المسدس المنعزل فى حصنالعقاب (لاس ناڤاس دى تولوسا) بالقرب من جيان ،والبرج المطل على قنطرة القاضى بغرناطة . اما

---

(١٣٣) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 144.

الموحدون فقد استعملوا البرج المثمن على نحو منتظم فى بناء ابراجهم البرانية ، وهو تعبير أندلسى عن الابراج الخارجة عن نطاق السور ، وما لبث أن شاع هذا النوع من الابراج فى المدن التى تقع على الحدود بين اسبانيا الاسلامية واسبانيا المسيحية ، مثل مدينة القصور Caceres وبطليوس Badajoz . كذلك استخدموا أبراجا برانية متعددة الاضلاع تتألف من اثنى عشر ضلعا مثل برج اسبانتا بروس ببطليوس ، وبرج الذهب باشبيلية . والبرج المثمن يفضل كثير البرج المربع من وجهة النظر الدفاعية ، اذ أن كثرة ضلوعه تتيح الفرصة للمدافعين للتحرك فى حرية الى كافة الزوايا . على أن البرج المستدير فى الواقع هو أفضل الابراج لاستدارته وسهولة الانتقال فى أجزائه .

والابراج البرانية ابتكار موحدى قصد بها تدعيم الستارة أو السور ، فالبرج البرانى يرتبط بالسور الاصلى عن طريق ستارة ثانوية تسمى قورجة تستهدف غلق الطريق أمام الاعداء فى اضعف مناطق السور . وهكذا أقيمت فى عصر الموحدين أبراج برانية فى بطليوس وطلبيرة ومارده وقلعة جابر واشبيلية . وبعض الابراج البرانية يتخذ شكلا مربعا أو مثمنا كما هو الحال فى ابراج قصبة الموحدين ببطليوس وأسوار مدينة استجة وقلعة جابر . ولكن البرج المثمن يمتاز على البرج المربع بأنه يفوقه مناعة وحصانة ، ومن المعروف أن الموحدين استخدموا البرج المربع والمثمن بدلا من الابراج المستديرة ـ رغم فعاليتها ـ لأن بناء الابراج المربعة والمثمنة بالملاط اسهل من بناء الابراج المستديرة ـ **ومن أشهر الابراج البرانية فى الاندلس** ابراج قصبة قاصرش الخمسة التى ترتفع عن ممشى سور المدينة وتتصل به عن طريق قورجات وهي : برج بوخاكو Bujaco وهو اسم محرف من اسم خليفة الموحدين ابى يعقوب يوسف (٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ ـ ١١٨٤ م) والبرج المشطوف والبرج المدور وبرج القرن وبرج سانتا آنه . وفى بطليوس ذاعت شهرة اسبانتا بروس ، أما فى اشبيلية فأشهرها برج الذهب .

اما **برج الذهب** فقد اسسه الخليفة الموحدى ابو العلاء ادريس بن المنصور (١٢١٨ ـ ١٢٣٠ م) سنة ٦١٨ هـ (سنة ١٢٢٠ م) تدعيما لسور اشبيلية ، وربط هذا البرج بالستارة الرئيسية المحيطة بالقصر عن طريق قورجة مؤمنا بذلك مدخل دار الصناعة للقطائع القائمة بالقرب من سور القصبة الذى يقع على الوادى بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل (١٣٤) وفى نفس الوقت كان هذا البرج يقطع مرور السفن فى الوادى عن طريق ماصر أو سلسلة مشدودة بينه وبين بناء ضخم من الطابية والملاط على الضفة المقابلة للنهر . ويتألف البرج من ثلاثة اجسام الادنى من ١٢ ضلعا ، يليه جسم ثان يقوم على سطح البرج الادنى فى وسطه وكان قد بدا فى اساسه سداسي الاضلاع ولكنه مايكاد ينبت على سطح البدن السفلى حتى يتحول الى ١٢

---

(١٣٤) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٨١ .

ضلعا (١٣٥) وبداخله يدور درج . وتزدان أوجه البرج بعقود صماء نصف دائرية مطولة مع مفصصة وأخرى مدببة توأمية ، وتزدان بنيقات العقود بمعينات من الخزف المزجج تتناوب فيها أخرى الخضراء مع البيضاء ـ وعلى باب الجسم الثانى للبرج يوجد مسطح مستطيل الشكل يزدان بشبكة من المعينات تماثل نظائر لها فى الخيرالدا .اما الجسم الثالث فاسطوانى الشكل ومصمت اضيف الى البرج فى سنة ١٧٦٠ لتدعيم بنيانه وتفادى انهياره .

أما برج اسبانتا بروس فكان يعرف منذعهد قريب ببرج الطلايع ، وهو مثمن الاضلاع يشبه برج الذهب بجسميه السفلى والعلوى ،وجدرانه مبنية من الملاط ، ويجرى على هذه الجدران من أعلى افريز بارز من الآجر على نحوابراج الموحدين . ومن المعروف أن ابراج المرابطين كانت تخلو من أمثال هذه الأفاريز البارزة (١٣٦) .

٣ ـ الابراج المدنية : نقصد بها مجموعةالابراج التى تدعم أسوار قصبة الحمراءبغرناطة، ومنها برج السيدات وبرج الأسيرة ، وبرجالأسنةوبرج مخدع الملكة ، وبرج الامراء وبرج قمارش . هذه الأبراج فى حد ذاتها تؤدى وظيفتين فى آنواحد : الأولى حربية والثانية مدنية ولهذا تبدو هذه الابراج من الخارج عاطلة من الزخرفة ،ولكنها من الداخل قصور رائعة تكتظ بالزخارف والتوريقات وتنفتح فىجدرانها القمريات والمناظر. فبرج الأسيرة مثلا يقوم على مرتفع يعلو الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف ، ويضم هذاالبرج قصرا صغيرا يتألف من قاعة رئيسيةتكتنفها شرفات ومخادع جانبية ، ويتوسط البرج صحن داخلى صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات. وزخرفة قاعات هذا البرج لا سيما تربيعاته الزليجية الملونة ، والزخرفة الجصية الرائعة التي ما تزال تحتفظ ببقايا الوان وتذهيب تجعل هذا القصر من اجمل ماشيده السلطان يوسف الأول .

وبرج الشرفات أو الأسنة ويقع بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة ، وقد سمى كذلك بسبب شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على احدجوانبه. ويناقض هذا البرج الأبراج الاسلامية الأخرى ، اذ من اليسير ملاحظة اثر العمارة المسيحية فى بنائه . ويغلب على الظن ان بعض الأسرى المسيحيين أسهموا فى بنائه . والقبوة التى تعلو قاعة الطابق الأول منه تقوم على تقاطع العقود القوطية .

---

(١٣٥) Torres Balbas, ars Hispaniae, t. IV, p. 39.

(١٣٦) السيد عبد العزيز سالم ، أضواء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية في العصر الاسلامي ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد، ١٩٧٥ ، ص ١٥٣

كذلك يضم **برج مخدع الملكة** شانه شـان برج الأسيرة قصرا صغيرا لطيـفا يرجـع تاريخ انشـائه الى السلطان ابى الحجاج يوسف الاول. ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش. وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الايطالى.

• • •

خامسا : الأبواب والمداخل

تقتصر دراسة هذا الموضوع على امثـلة قليلة بعضها اموى يتمثل فى جـامع قرطبـة ، وبعضها موحدى يمثله باب الغفران والمدخـل الجانبى الى صحن المسجد الجامع باشبيلية ، وبعضها نصرى من غرناطة يتمثل فى مدخل فندق الفحم وباب النبيذ بقصر الحمراء والمدخل الى قصر المشور .

أ ــ بوابات جامع قرطبة : اصبح مجموع عدد ابواب الجامع بعد زيادة الحكم فيه عشرين بابا ، ولما أجرى المنصور زيادته الكبرى هـدم الجدار الشرقى ، واضاف لبيت الصلاة ثمـانى بلاطات بطول الجامع ، ثم فتح فى الجدار الشرقى الجديد عددا من الابواب يماثل عدد أبواب الواجهة الغربية ، ثم فتح بابا فى الجدار الشمالى ، فاصبح المجموع الكلى لأبواب الجامع ٢١ بابا وهو رقم أورده المقرى نقلا عن ابن بشكوال (١٣٧) ، والى هذا العدد يمكن أن نضيف ثمانية أبواب كانت تنفتح داخل الساباط الموصـل الى القصر وبابا للمخزن الواقع الى يسار المحراب ، ثم الـبـاب المتخلف من جدار الزيادة الحكمية الشرقى ممـايلى جدار القبلة ، واخيرا ثلاثة ابواب بالمقصورة. ويهمنا الأبواب الخارجية للجامع وكانت جميعها « مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفى كل باب منها حلقتان فى نهاية الاتقان ، وعلى وجه كل باب منها فى الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الاحمـر المحـكوك انواع شتى واجناس مختلفة من الصناعات والترييش وصدور البواة » (١٣٨) .

هذا الوصف الرائع هو أقرب الى أن يكون وصفا لأثر معاصر للفن ، فالادريسى لم يتـرك الدقائق الزخرفية البسـيطة دون أن يتناولهـا بالوصف : فقد أشار الى الفسيفساء التى تزين واجهات الابواب ، والتى تقوم على ترصيعها بقطع من الآجر الاحمر الاملس مع قطع من الحجـارة

---

(١٣٧) المقرى ، ج ٢ ص ٨٨ .

(١٣٨) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ . ويذكر ابن سعيد ان هذه الابواب كانت ملبسة بالنحاس الاصفر (المقري ، ج ٢ ص ٨٨) ، بينما يذكر ابو حامد الغرناطي نقلا عن الادريسي ان فى كل باب حلقتان فى نهاية الصنعة ، ونميل الى الاخذ بقول الادريسي استنادا الى ما نشاهده اليوم فى باب الغفران بجامعي قرطبة واشبيلية.

البيضاء فى أشكال هندسية ، الى جانب الزخارف النباتية التى تملأ بنيقات العقود وتفمر السنجات والأعتاب وطرر العقود وما بين العقود العليا والجانبية ، ويشبهها بالترييش وصدور البزاة . وكانت أبواب الجامع تنفتح بين زوج من الركائز ، ونلاحظ أن أبواب الزيادة الحكمية تمتاز بالضخامة والثراء الزخرفى ، فواجهاتها جميعا مكسوة بالزخارف النباتية والهندسية . ومع انه لم يتبق من هذه الأبواب سوى ثلاثة تنفتح فى الواجهة الغربية المطلة على المحجة العظمى ، الا انه تبقت مع ذلك بقايا عقود فى مخلفات الجدار الشرقى ، أحدها باب وصل الينا كاملا فى نهاية الواجهة الشرقية مما يلى القبلة ، زود عقده بعبث سنج يعلوه عقد مخفف للضغط بينما يغطى الفراغين الجانبين زخارف رائعة قوامها التوريقات والتكوينات النباتية التى تتألف من فروع لولبية مستديرة تتصل فيما بينها بأوراق مختمة من الاكنش . وتتوسط هذه الاكاليل المستديرة ورقة نباتية من ثلاثة فروع مشدوخة من الوسط ، ويتناوب فى العقد سنجات حجرية نقشت فيها توريقات نباتية مع أخرى من الآجر ذات اربعة قوالب مصفوفة على جوانبها ، اما طبلة العقد فتكسوها زخرفة هندسية من أشرطة حجرية متعرجة تتناوب مع أجرى من الآجر الاحمر . اما سنجات العتب المكمل لطبلة العقد فتغطيها زخارف شبيهة بزخارف سنجات العقد . ويفمر بنيقات العقد الرئيسى والعقود الخمسة المفلقة التى تتقاطع بأعلى الباب زخارف من التوريق فى حين تحيط بالباب من أعلى طرة مستطيلة تكسوها زخارف شطرنجية مرصعة بفصوص الحجر والآجر . ويكتنف الأبواب الأخرى التى تنفتح فى الواجهة الغربية من كل من الجانبين جوفة مستطيلة لها عتب مسنج ، بأعلاها عقد مفلق خماسى الفصوص تكسوه زخارف هندسية من الفسيفساء ، وتملأ بنيقتى العقد توريقات تتوسطها زهرة بارزة . ويعلو الباب من أعلى نوافذ مفلقة تعلوها بدورها عقود منفوخة قائمة على عمد تتقاطع فيما بينها ، وتحتشد فى أرضية النوافذ المفلقة وبنيقات العقود وطررها وظهورها زخارف هندسية ونباتية .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الابواب جميعا ماتزال تحتفظ بنفس نظام باب سان استيبان أقدم أبواب الجامع ، وان سنجات عقود الأبواب الغربية كاملة بعكس نظائرها فى الجدار الشرقى الذى يرجع الى عهد المنصور . وتتبع أبواب هذا الجدار الشرقى فى أسلوبها أبواب الجدار الغربى ، ولكن زخارفها ليست فى مثل زخارف بوابات الحكم من حيث خطوط الزخرفة ، ومن حيث نسبها ، ومن حيث طريقة ادائها مما يدل على اضمحلال واضح فى فن الزخرفة والبناء فى عهد المنصور . ولقد وصلت الينا أبواب الجامع الشرقية مشوهة لاسيما فى أجزائها العليا ، فرممت فى طليعة هذا القرن ترميما غير علمى أبعدها عن أصولها (١٣٩) .

---

(١٣٩) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. 111, p. 162 et sqq. Torres Balbas, Arte Hispano musulman, pp. 575-578.

ب ـ **بوابات جامع اشبيلية :** كانت تنفتح فى جدران الجامع الخارجية أبواب عديدة اختفت بهدم الجامع وانشاء الكاتدرائية ، كما كان ينفتح فى جدران الجامع بالصحن ثلاثة أبواب : واحد فى امتداد محور بيت الصلاة يعرف اليوم بباب الغفران ، وبابان آخران فى المجنتين الشرقية والغربية تبقى منهما باب المجنة الشرقية ، ويلى هذا الباب اسطوان تغطيه قبوة من المقربصات تماثل قبوات جامع الكتيبة بمراكش .

اما الباب الرئيسى أو باب الغفران الذى كان يتوسط الواجهة الشمالية للجامع ، فبناء ضخم تغيرت معالمه ببعض الاضافات التى الحقت به بعد سقوط اشبيلية فى أيدى القشتاليين . وأهم ما فيه عقدان : عقد خارجى منفوخ منكسر امتدت اليه ايضا يد التغيير والترميم يحتضن بابا خشبيا من مصراعين تكسوهما صفائح من البرنز مزينة بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالا مسدسة : تتناوب فى وضع افقى وراسى ، وتقوم بينها أشكال نجمية ، فى وسطها أشكال مثمنة . وتحتشد فى المسدسات الراسية توريقات رائعة ، وتملأ الاشكال المسدسة الأفقية توريقات تختلط فيها كتابة كوفية نقرأ فيها عبارة « الملك لله البقاء لله » ويحيط بالمصراعين افريز من الكتابة الكوفية المختلطة بالتوريقات . وضبتا الباب من أروع امثلة التحف البرنزية فى عهد الموحدين ، اذ تتخذ كل منهما شكل ورقة نباتية اطرافها على شكل حينات متصلة ، وبداخلها أوراق صغيرة مخرمة مزودة أطراف مدببة واخرى ملتفة ، ويحيط بالضبتين كتابة نسخية نصها فى الضبة اليمنى : « بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة » . وفى الضبة اليسرى : « بسم الله الرحمن الرحيم . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين » وترجع هاتان الضبتان الى عصر أبى يعقوب يوسف .

وينتهى المدخل بعقد مطل على صحن الجامع ، يزدان بطنه بزخارف قوامها أشرطة بارزة ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بيزنطية الاصل لها نظائرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء ، اما الشريط الاوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من سعف النخيل الملساء التي تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط محززة اطرافها تنحنى فى تجعدات ، وتتلاحم فى تناسق وايقاع . وترتسم فى بعضها خطوط لولبية محززة . وقد حفرت الزخرفة النخلية على طبقتين مما أضفى عليها نوعا من التباين القوى بين الظلمة والنور ، ويسمى الاستاذ مارسية هذه الزخرفة بالكثيفة Décor Compact وتشبه الى حد كبير زخارف محراب جامع توزر بتونس ، وهو مسجد ينخرط فى سلك الفن الاندلسي ويعاصر المسجد الجامع باشبيلية .

جـ : ـ مدخل فندق الفحم بغرناطة : ونختتم الحديث عن المداخل والبوابات بمثل من بوابات عصر بني نصر وهو فندق الفحم . والمدخل يتخذ شكل عقد متجاوز منكسر يحيط به عقد زخرفي متعدد الفصوص تطوق فصوصه العليا فستونات تتضافر من أعلى مفتاح العقد مع طرته المستطيلة وتغمر بنيقتى العقد توريقات ملساء ويعلو السطرة طراز من الكتابة الكوفية تختلط بتوريقات بنائية . فى غاية الثراء ، وتعلو هذا الطراز عتب زخرفى سنجاته مطولة احداهـا بارزة والاخرى مسطحة على التوالى ، وبأعلى هذا الطراز غرفةالفندقي التىتطل على المدخل ، تتوسطها نافذة توامية العقود يكتنفها الى اليمينواليسار شبكة من المعينات تعلو عقدا مفصصا يماثل فى تكوينه عقد المدخـل . ويلى المدخـلاسطوان تغطيه قبوة من المقرنصات الدقيقة . ونظـام البوابة بعقدها الضـخم المنكسر يذكرنابالايوانات المشرقية التى ظهرت بادىء ذى بدء فى القصور الساسانية .

ويلي الاسطوانالمذكور بابمستطيل الشكليعلوه عتب ويعلو العتب نافذة معقـودة بعقدين منفوخين منكسرين تطوقهما طرة ويتوسطهما عمودصغير من الرخام من الطراز النصري ، ويؤدي هذا الباب الى صحن الفندق .

• • •

وبعد ، فهذا عرض سريع لأهم ملامح العمارة الاسلامية فى الاندلس ، حاولنا ان نعطي فيه صورة قد تكون موجزة ولكننا نرجـو ان تكونواضحة للقارىء العربي عن جانب من اهم جوانب تراثنا الذي يحتاج الى الكثير مـن العنايـةوالاهتمام ، حتى يمكننا ان نقدر مدى ما بلغته الحضارة الاسلامية فى احدى مراحـل حياتهـاوتطورها ، عسى أن يكون ذلك ما يدفع الى العمل ليس فقط على احياء هذا التراث بل وايضا علىالاسهام فى الحضارة الحديثة بمثل ما اسهمنا فى حضارة العصور السابقة .

★ ★ ★

قبة المدخل الى زيارة الحكم بجامع قرطبة

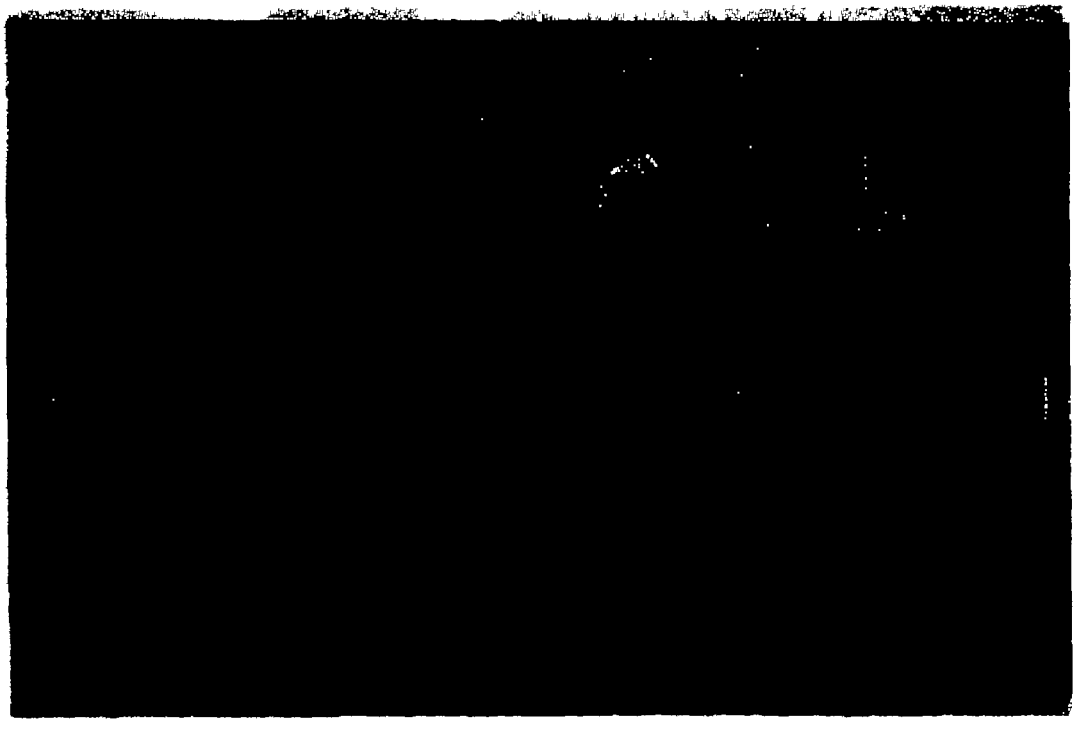

تشبيك العقود بمقصورة جامع قرطبة

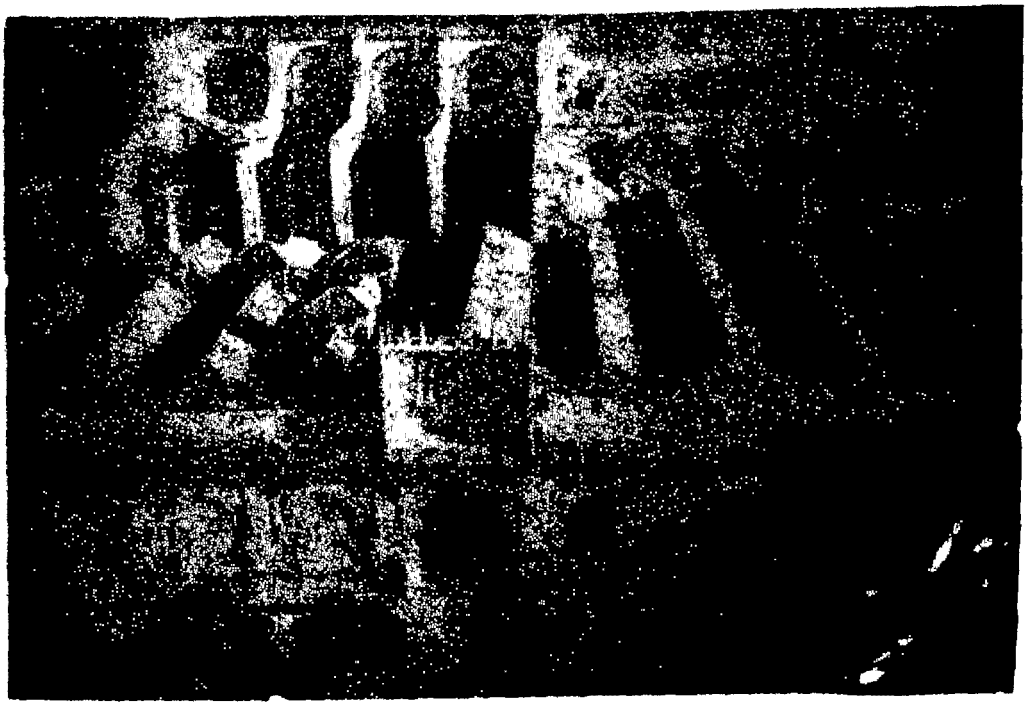

أسقف جامع قرطبة من الخارج

صحن الجامع باشبيلية يرى من أعلى المئذنه

بهو السباع بقصر الحمراء

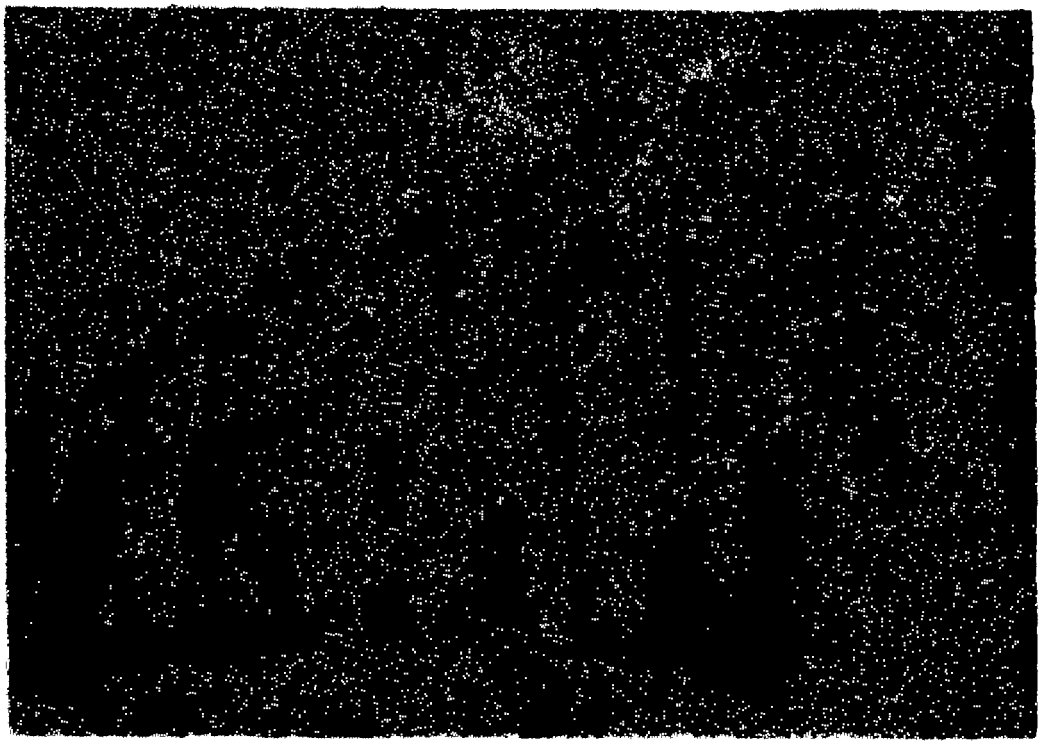

الجدار القبلى لجامع قرطبة

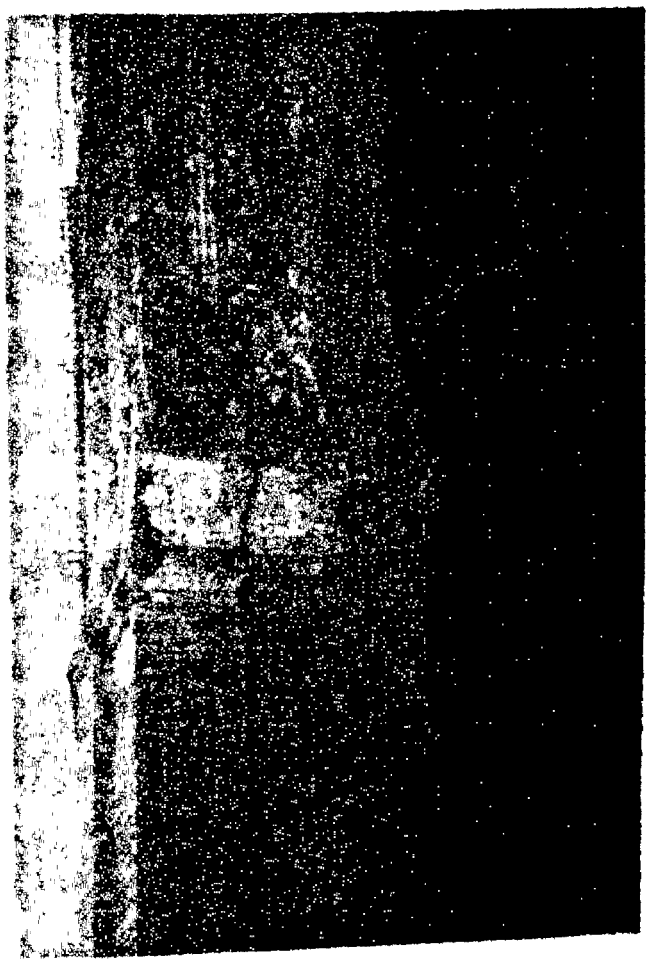

العقد الداخلي المطل على صحن جامع اشبيلية

طليطله الواجهه الشماليه لمسجد باب المردوم

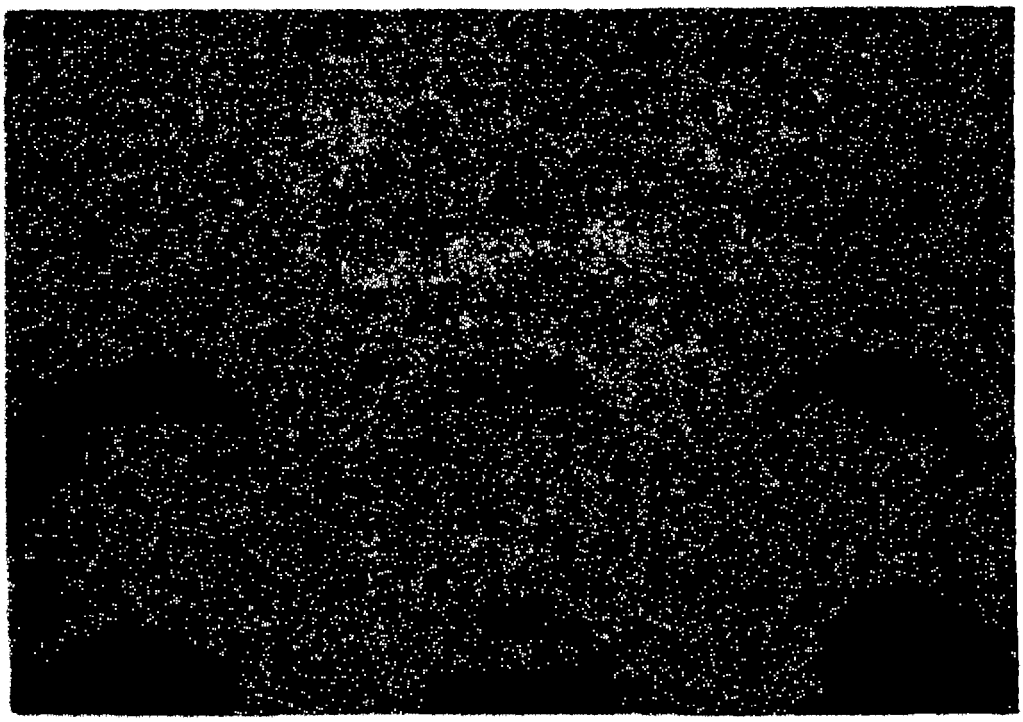

طليطله واجهه مسجد باب المردوم

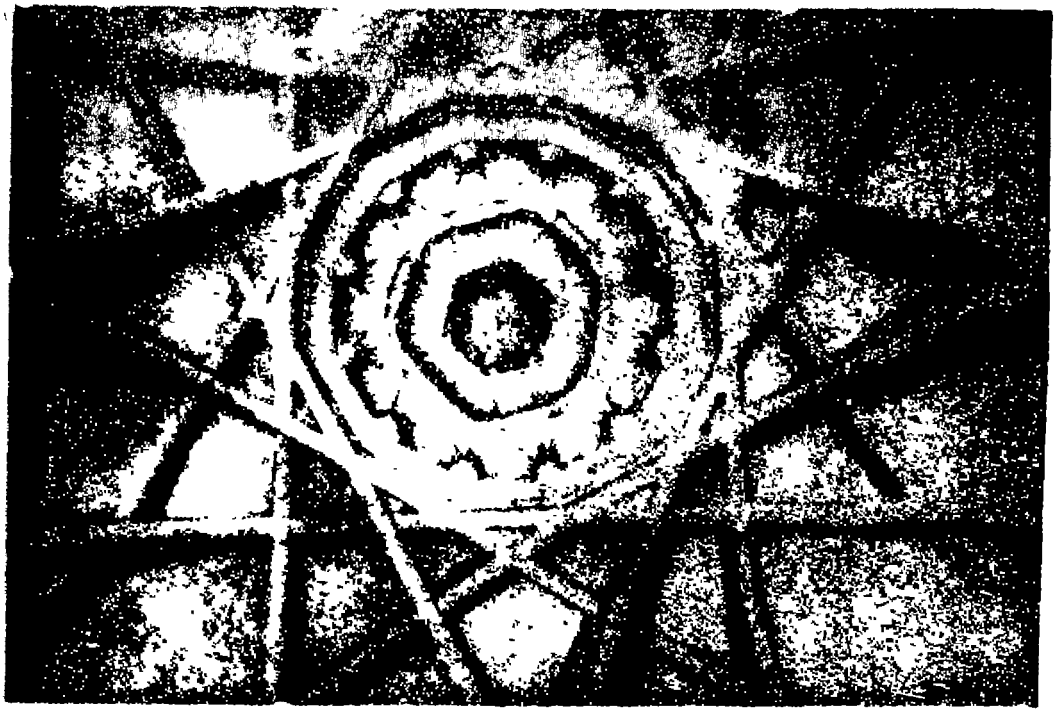

قبوة ذات الضلوع بمنزل فى بهو الاعلام بقصر اشبيلية

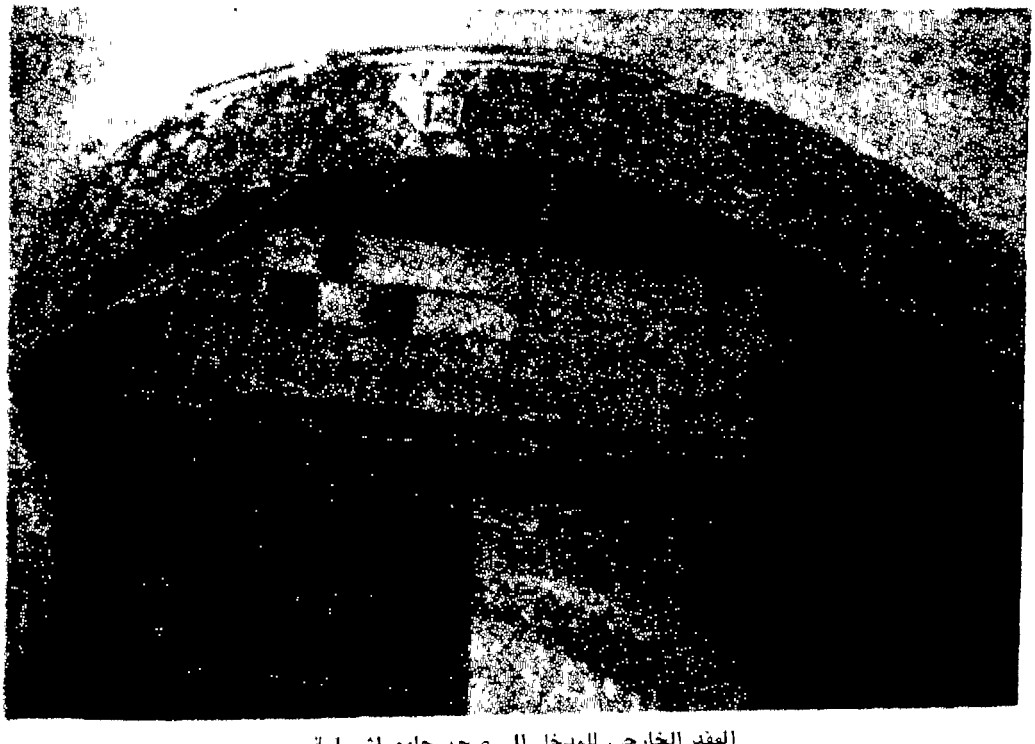

العقد الخارجى للمدخل الى صحن جامع اشبيلية

تفصيلات زخرفة لعضادة مكسوه بالزخارف بيهو البركه

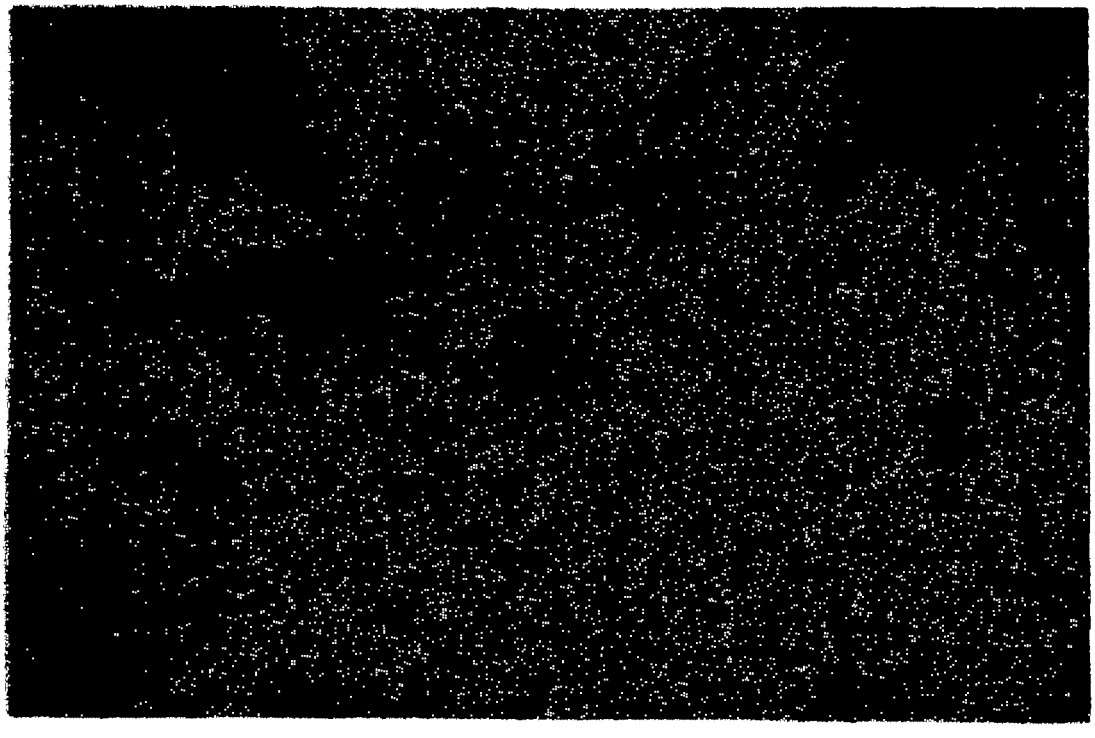

قبة محراب جامع قرطبة

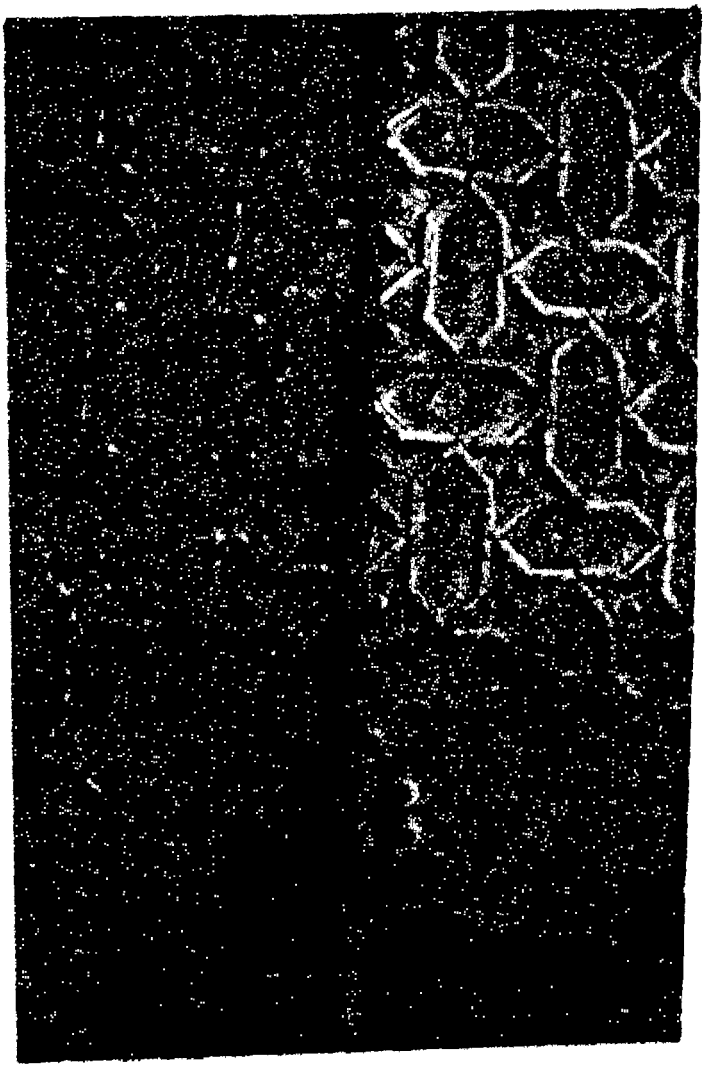

مصراع باب المدخل الى صحن جامع اشبيليه

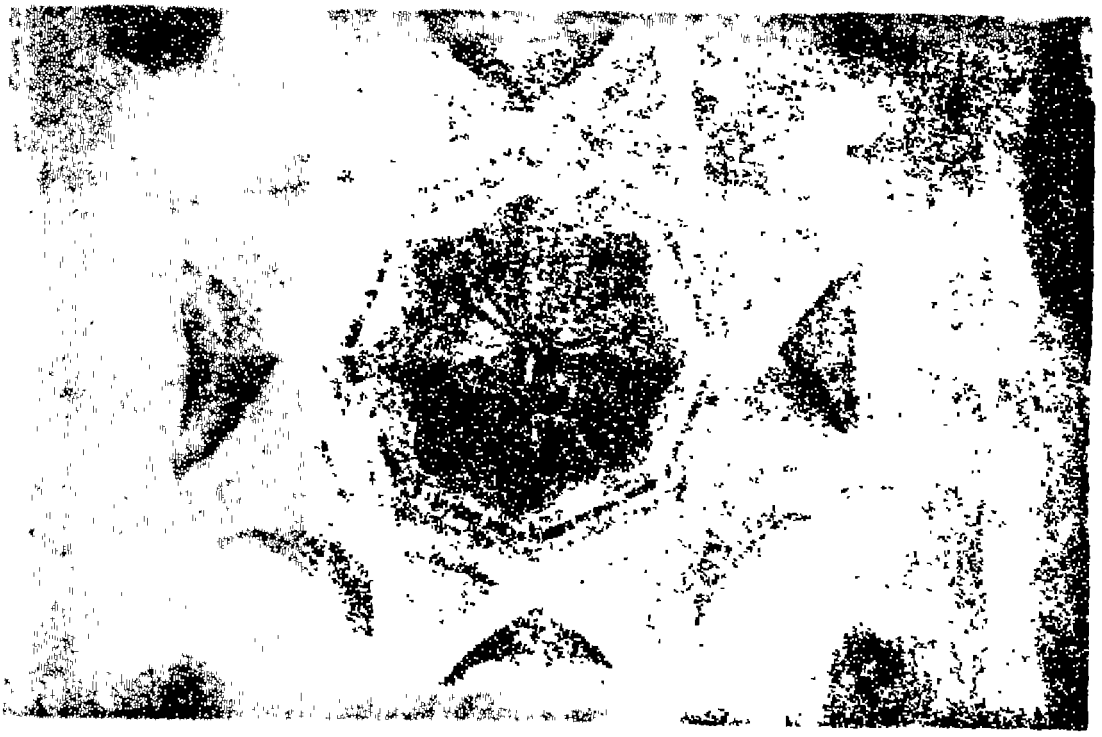

قبه قاعه بنى سراج بالحمراء

مسجد الباب المردوم بطليطلة

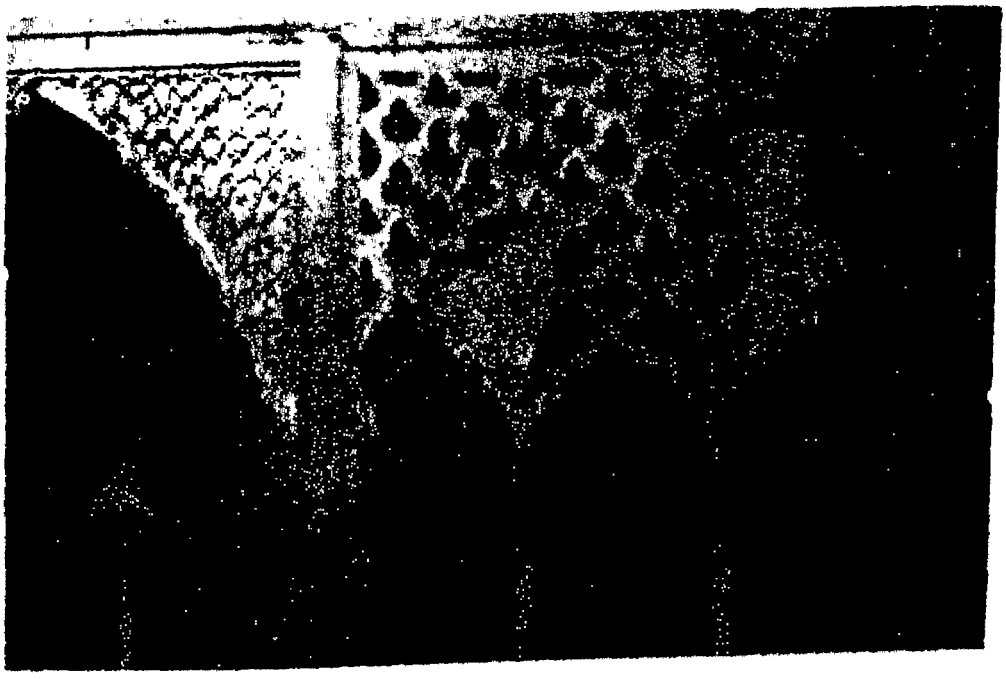

البرطل المطل على فناء الحص بقصر اشبيليه

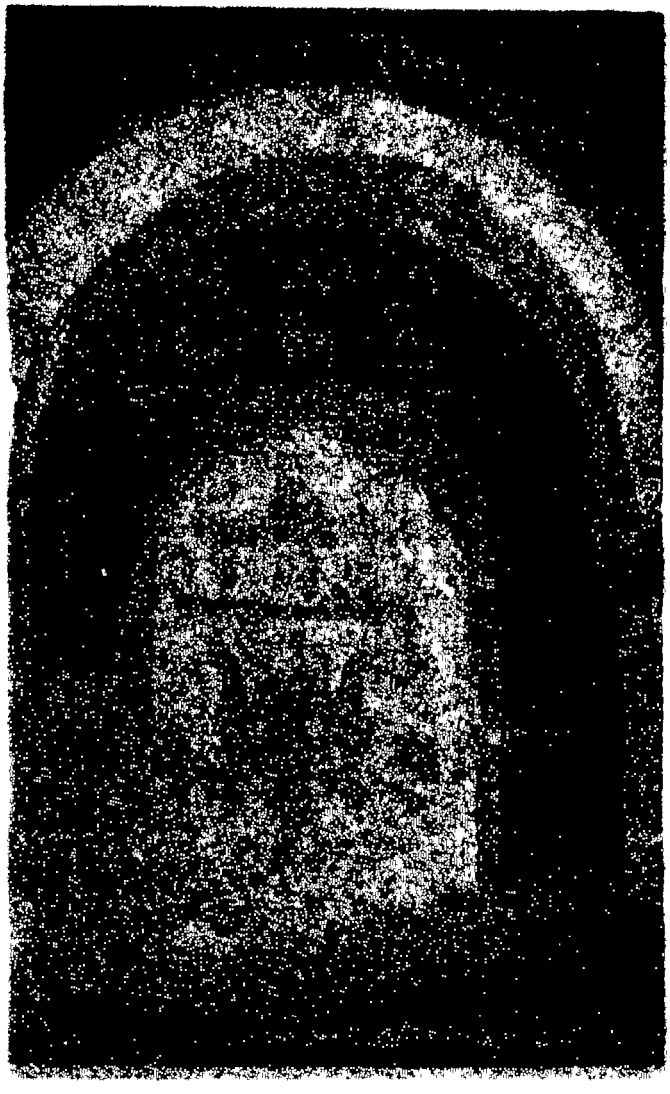

هو الساقيه بقصر جنه العريف بغرناطة

مئذنه جامع قرطبة

برج كنيسة سانتا ماريا ماجيورة

برج السمدات بكل قصر البرطل

بهو التاريخ بمسجد ابن عدبس بمدينة اشبيليه

برج الذهب باشبيليه

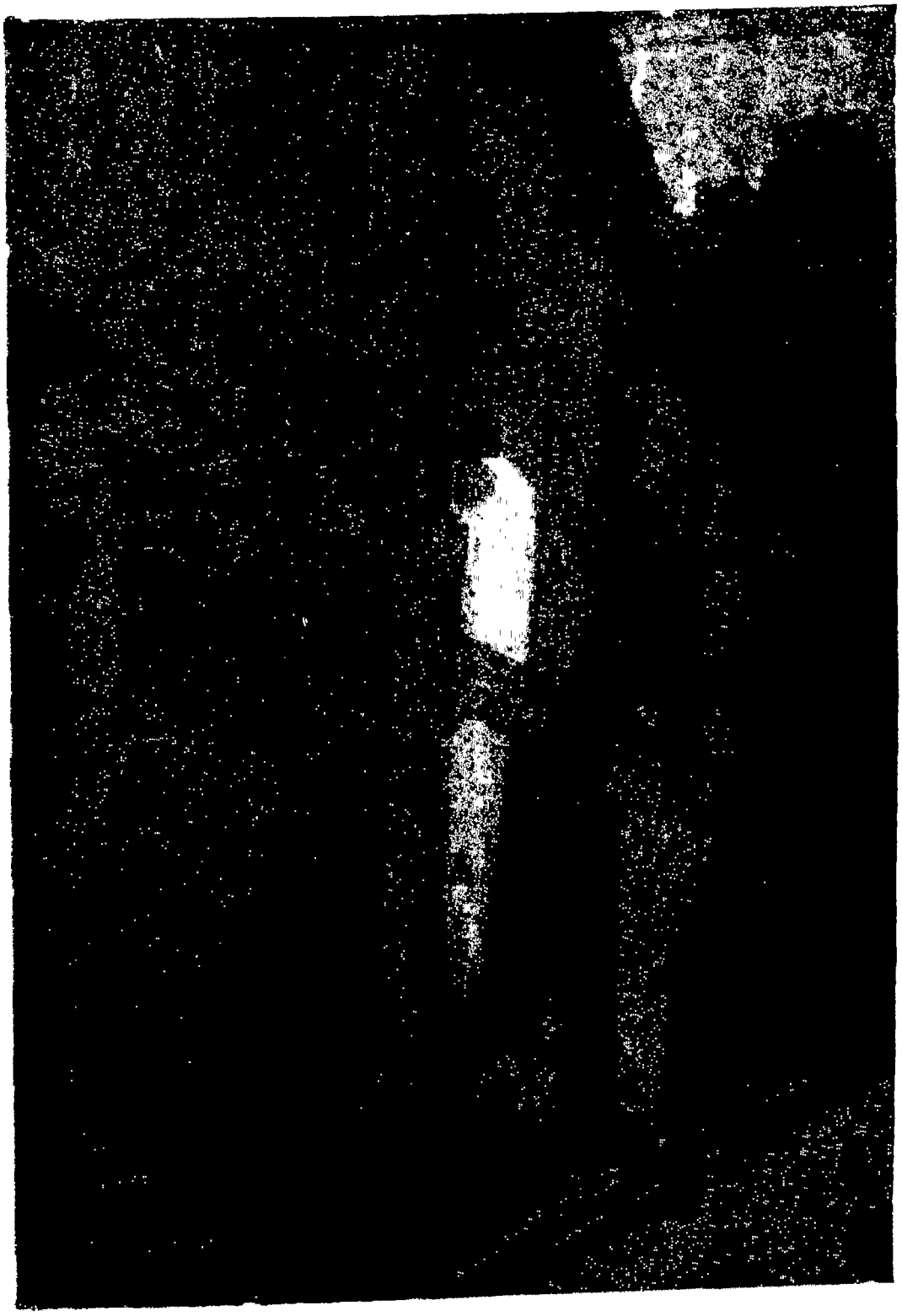

مئذنة سانتا كلارا بقرطبة

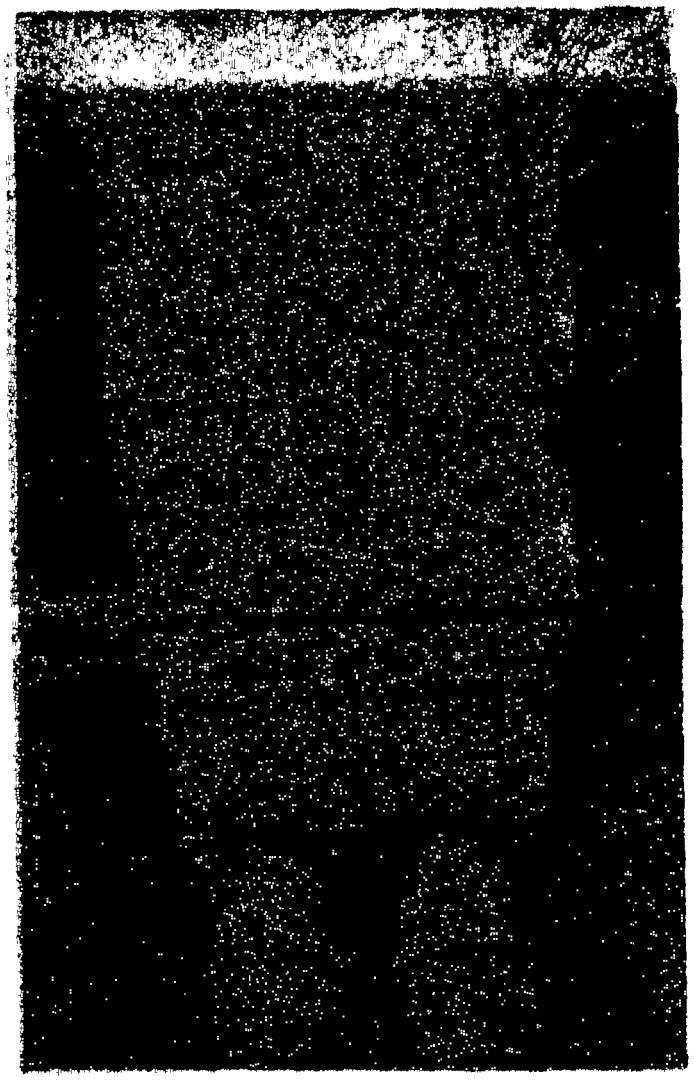

تيجان أعمده علي بهو السباع

مدخل قاعة السفراء بقصر الحمراء

مدخل كنيسة سانتياجو بطليطله

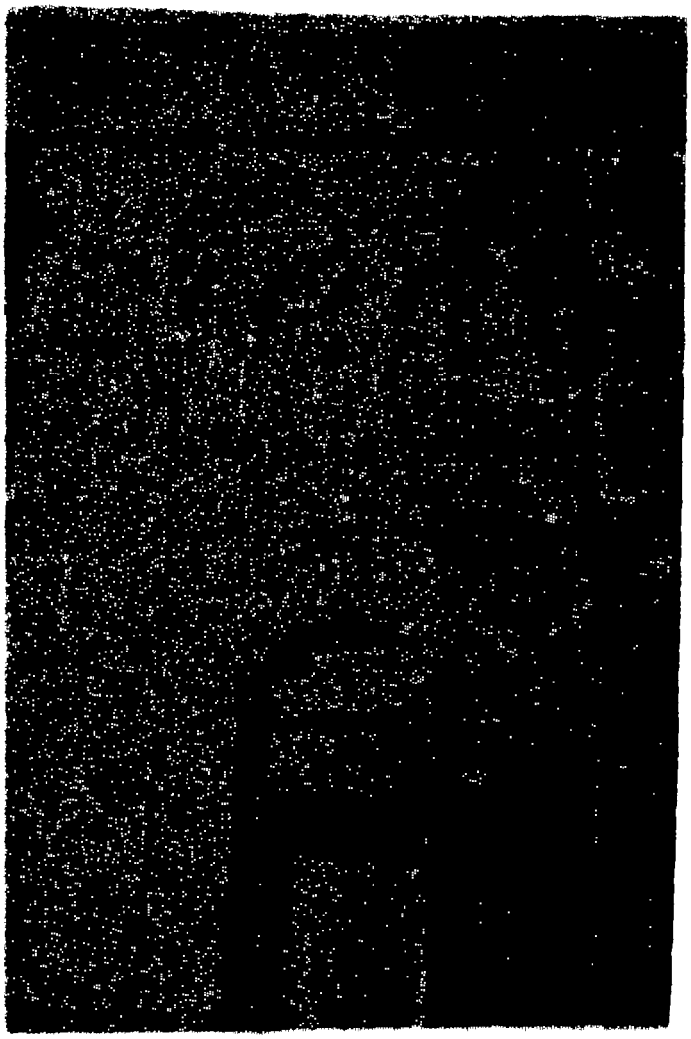

باب جامع قرطبة

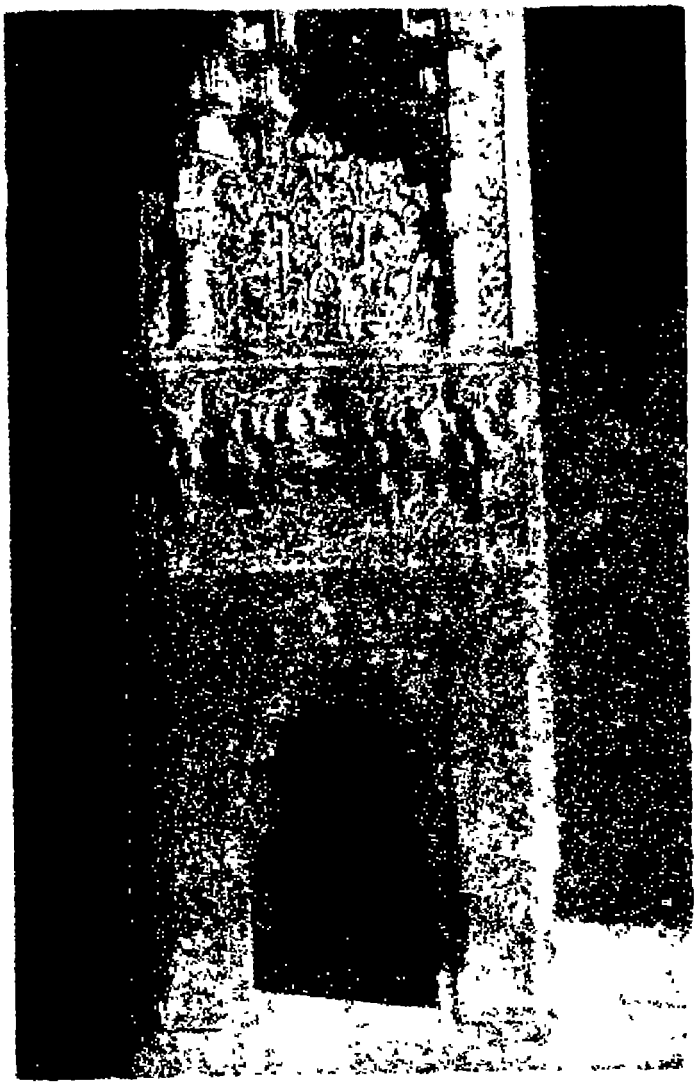

المسجد الجامع بقرطبة من الداخل

شبكه من المعينات تزين الطابق العلوى من برج الذهب باشبيليه

واجهة المحراب بجامع قرطبه

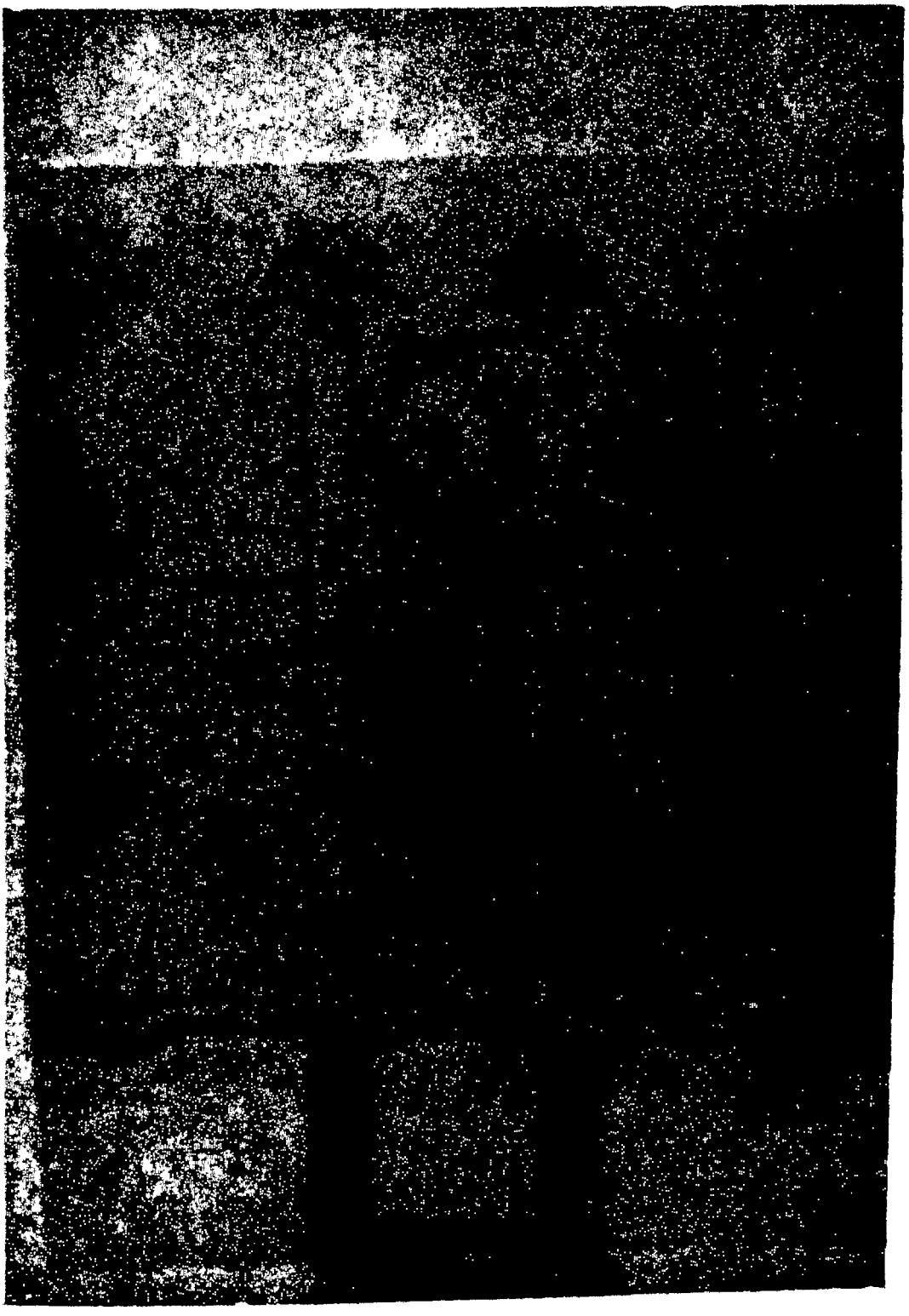

طليطلة قنواب مسجد باب المردوم

مفصبلات زخرفيه باحد اوجه مئذنه اشبيليه

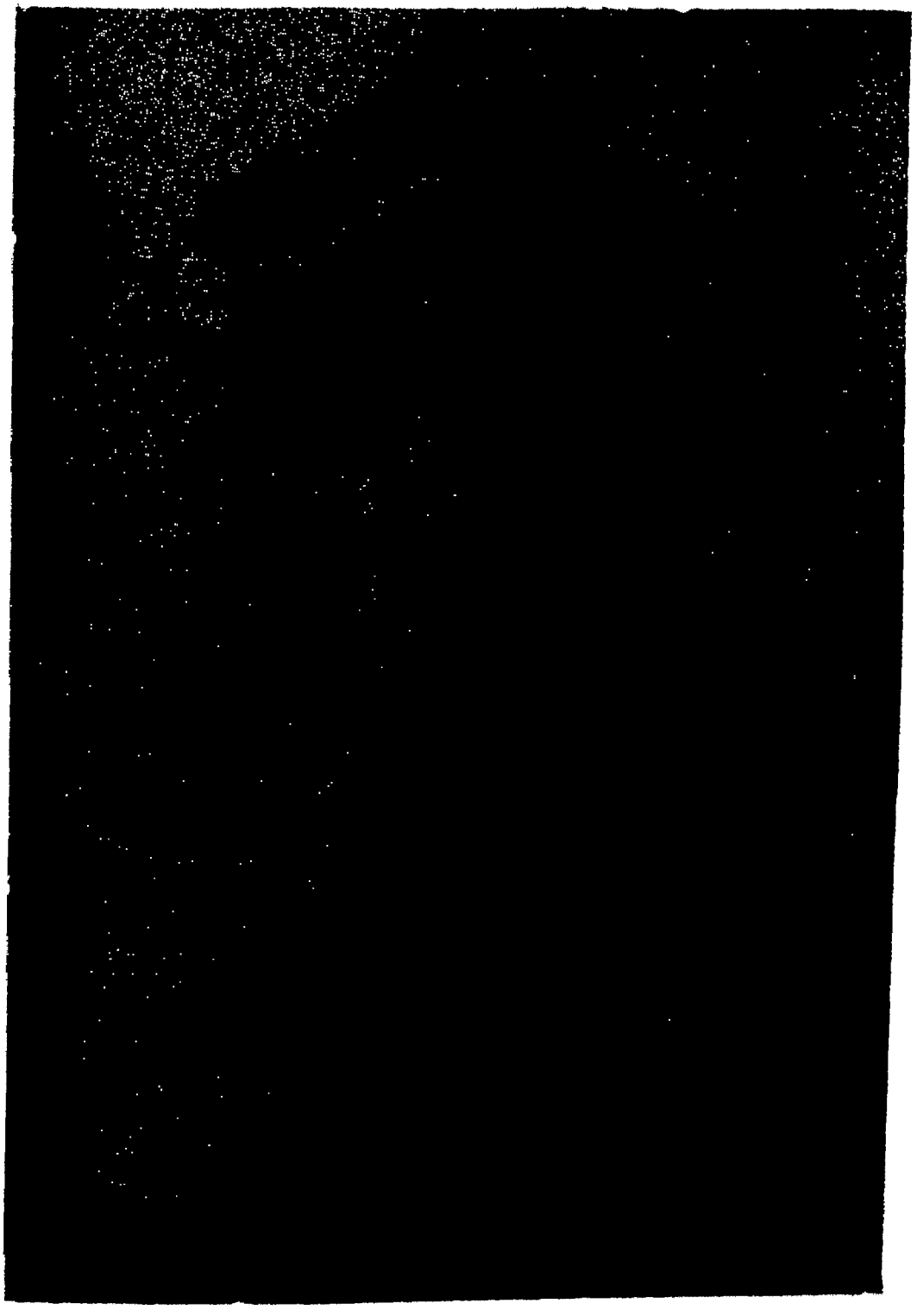

منذنه جامع قرطبه

عقود بقصبة مالقه

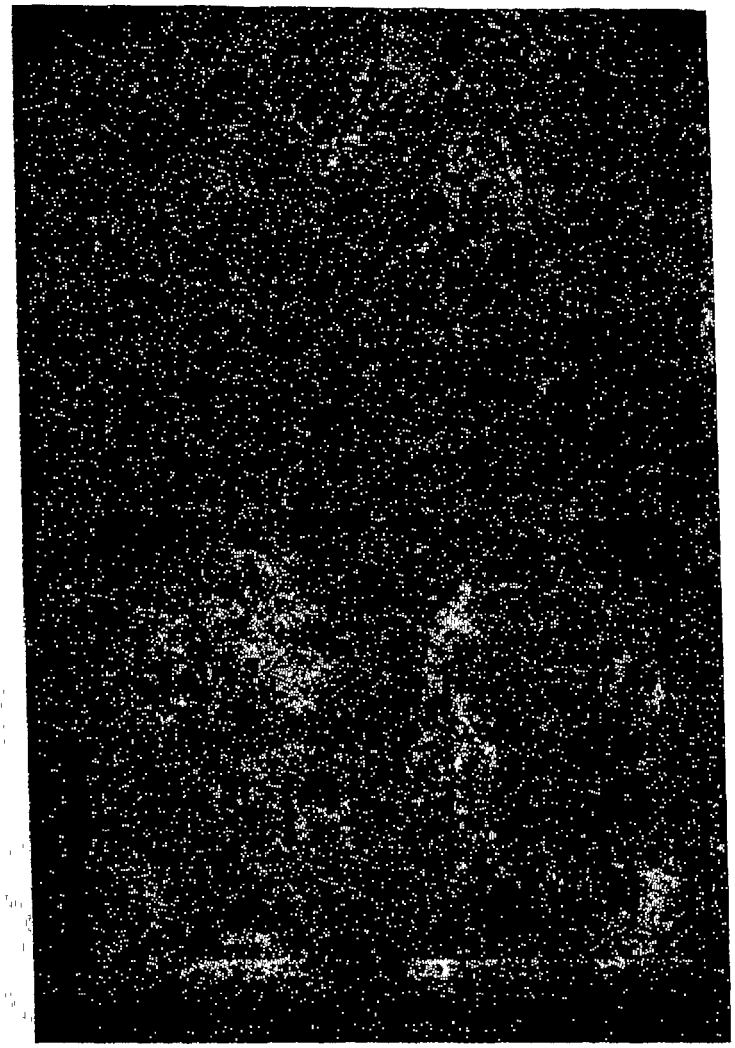

منظر دار عائشه بقصر الحمراء

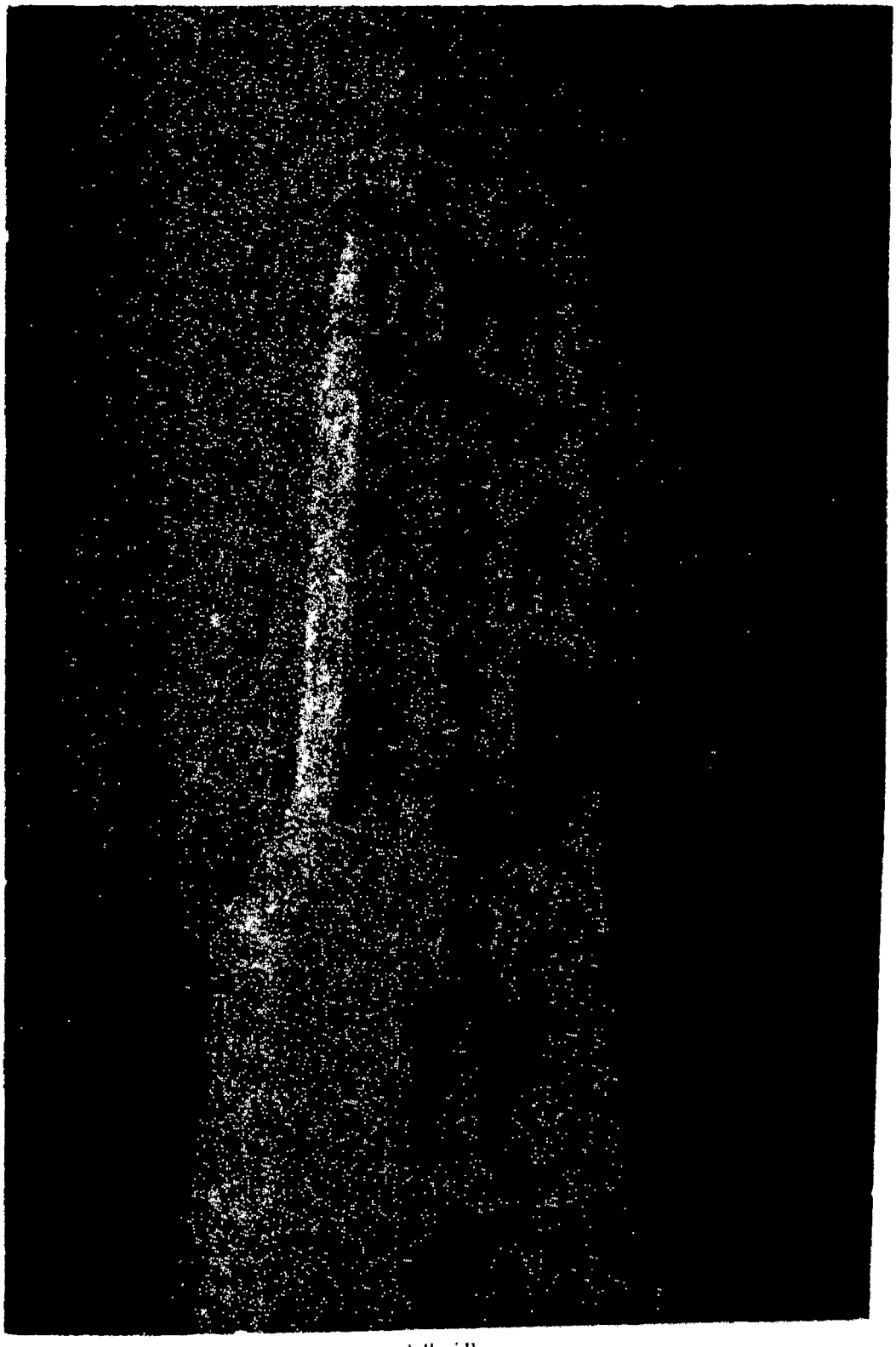

الخير الدا